



قيادة
محمد ﷺ

الإمام راع، وهو مسؤول عن رعيته

حديث نبوي

جون أدير

ترجمة رامي كلاوي

الترت

الإمام راع،
وهو مسؤول عن رعيته
حديث نبوي

الترث

من إصدارات التراث، التابعة لدار اليربوع للنشر - 2011

ص.ب 333838 دبي - الإمارات العربية المتحدة

www.jerboabooks.com

ISBN 978-9948-447-18-4

موافقة (المجلس الوطني للإعلام)

دولة الإمارات العربية المتحدة

رقم 760 بتاريخ 16 فبراير 2011

الطبعة الثانية 2011

حقوق النص: © جون ادير

ترجمة: رامي كلاوي

تمت إضافة هوامش الكتاب وكلمة (صلى الله عليه وسلم) من المترجم

جميع الحقوق محفوظة ولا يجوز نشر أي جزء من أجزاء هذا الكتاب
أو نسخه بشكل أو نظام آخر أو نقله بأي شكل كان، أو أية وسيلة أخرى
(الكترونية، ميكانيكية، تصوير، تسجيل أو بأي صورة أخرى مهما كانت)
دون إذن خطي مسبق من الناشر، وأي شخص يقوم بعمل له علاقة بهذا
الكتاب، دون إذن من الناشر، يعرض نفسه للمسائلة القانونية والدعوى
القضائية.

مقدمة المترجم

يبدو لكم هذا الكتاب لأول وهلة صغيراً في حجمه ولكنه في الحقيقة كبير ورائع في مضمونه، فهو ثمرة وخلاصة خبرة سنوات طويلة أمضاها المؤلف باحثاً ومؤلفاً ومدرساً ومدرّباً في علم القيادة، كتب في هذا الفن عشرات الكتب، وانتشرت مؤلفاته شرقاً وغرباً حول العالم، وحضر دوراته التدريبية ما يقارب المليون متدرب من الموظفين والمدراء والقياديين من مختلف الدول، حتى أصبح مرجعاً شهيراً على مستوى العالم في هذا الاختصاص، وبعد نصف قرن من البحث والتأليف والمحاضرة والتدريب في علوم القيادة، قرر أن يكتب عن الجانب القيادي في شخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم، أراد بذلك أن يساهم في تصحيح الانطباعات السلبية السائدة في الغرب، عن نبي الإسلام، وسيلاحظ القارئ أن المؤلف يعرف الكثير عن العرب وعاداتهم، وعن الإسلام وسيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

هذا الكتاب متعدد الفوائد، فهو في علم الإدارة مدخل ممتاز إلى تعلم القيادة، يستفيد منه كل قارئ مهما كان دوره في الحياة، فكما قال النبي صلى الله عليه وسلم (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) فقراءة هذا الكتاب سوف تحسن فهمك لأسرار القيادة الناجحة، وهو مفيد أيضاً كدعوة غير مباشرة إلى التعارف والتعايش بين الشعوب وحوار الثقافات، كما جاء في القرآن الكريم (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) ففيه كثير من الحكم والأمثال عند مختلف الأمم، كما أنه يساعد القارئ الغربي خصوصاً في تكوين فكرة صحيحة نوعاً ما عن الإسلام وحضارته ونبيه صلى الله عليه وسلم، فهو مع تركيزه على جانب القيادة، يضيء على الجوانب الأخرى ذات الصلة بالأخلاق والتعامل الإنساني.

ومن جهة أخرى يمثل هذا الكتاب إضافة مهمة إلى شهادات

المفكرين الغربيين الذين أنصفوا الإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم، وتتلخص هذه الشهادة بقوله في خاتمة الكتاب¹ : إن مفهوم القيادة في الثقافة الإسلامية - إذا كنت قد فهمته - قد تفوق على الثقافات الإنسانية الكبرى الثلاثة² التي ذكرتها، فالقيادة في الإسلام تبلغ في ذروتها المثل الأعلى النبيل السامق الذي يوجب على كل القادة - رجالاً أو نساء؛ صبياناً أو بنات- أن يتمثلوا بصفات الله، وبحسب القرآن يجب على المسلمين أن يعملوا من أجل أن يعكسوا في طريقة حياتهم؛ وخصوصاً قيادتهم؛ تلك الصفات في العالم، مثلما يعكس القمر نور الشمس.

لقد سعدت بترجمة هذا الكتاب المتميز، وكنت أثناء عملي في ترجمته على تواصل مستمر مع المؤلف، حيث كنت أطلعه على بعض الملاحظات، وقمت بتعديلها بناء على موافقته، وقد أشار المؤلف إلى ذلك في كلمته ضمن مهرجان الآداب في دبي³، حتى اعتبرني شريكاً له في هذا الكتاب! وذلك من لطفه وتواضعه.

تنويه: أضفت على الكتاب بعض الهوامش للفائدة، فالمؤلف لم يضع أيّاً منها، وكذلك عبارة (صلى الله عليه وسلم) قمت بإضافتها كلما ورد اسم النبي، وأعلمت المؤلف بذلك.

مترجم الكتاب : رامي كلاوي

1 - انظر الصفحة 115.

2 - يقصد بها الثقافة الغربية والثقافة الشرقية والثقافة القبلية.

3 - كان ذلك في ندوة خاصة عن الكتاب ضمن مهرجان الآداب في دبي 10 مارس 2011، حيث حضر المؤلف شخصياً لتوقيع كتابه وتحدث عنه مطولاً أمام الجمهور.

الفهرس

1	 المقدمة	
5	 مضارب بني سعد	1
17	 الراعي	2
27	 قائد القافلة	3
41	 قاطنو الصحراء	4
63	 محمد ﷺ الأمين	5
71	 المشاركة في المشقة	6
83	 التواضع	7
99	 من الماضي إلى الحاضر	8
115	 الخاتمة	
119	 موجز عن حياة محمد ﷺ	

المقدمة

كما تكونوا يولى عليكم¹

مثل عربي

هذا الكتاب عبارة عن دراسة تتناول جانباً من حياة محمد ﷺ ألا وهو قيادته، وليس موضوع الكتاب سيرة محمد ﷺ بشكل عام، فإذا لم تكن عندك فكرة عن سيرته، ستجد في آخر الكتاب موجزاً عنها، يمكنك الرجوع إليه.

لذلك لن أركز كثيراً على جوانب تعتبر أساسية من حياة محمد ﷺ، عند أي كاتب لسيرته، مثل دوره كنبى ورسول. وبما أنني استعملت كلمة 'دور' فينبغي أن أقول إنني اعتبره مفتاحاً أساسياً لفهم القيادة.

إن كلمة 'دور' تستعمل عادة للتعبير عن الدور الذي يؤديه ممثل في مسرحية، ولكنها في الاستعمال الواسع يقصد بها صفة الإنسان ورسالته في الحياة، وثمة ما يدعو إلى القول بأن آمال الناس هي التي تحدد لهم دوراً خاصاً ضمن المجتمع.

لاحظوا أيضاً مصطلح 'role model' وهو تعبير جديد نسبياً في اللغة الإنكليزية، ومعناه: الشخص الذي يعتبر نموذجاً جيداً وبارزاً لدور ما. بالنسبة للمسلمين، فإن الله تعالى هو القائد الأول والحقيقي، والجميع مُلزمون بحكم إيمانهم بطاعة شريعة الله، وهكذا فإن أي

1 يُروى كحديث مرفوع إلى النبي، لكنه ضعيف، ومع ذلك فيه حكمة ومعناه صحيح.

قائدٍ لهيئةٍ ما - اقتصادية أو سياسية أو دينية - هو في المقام الأول وبشكل أساسي متقاد لأوامر الله، وهذه الحقيقة تضع حدوداً للقادة المسلمين، وتبين واجباتهم نحو الناس الذين يقودونهم.

القائد النموذجي في الفكر الإسلامي، هو الذي يتحلّى بالتواضع، ويحظى بالاحترام في الوقت نفسه، ويكون ذا بصيرة وإلهام، ويكون مكرساً لخدمة الناس.

ومن خلال قراءتك لهذه الصفحات، أمل أن تقرروا بأنفسكم، إلى أي درجة كان محمد ﷺ يمثل هذه الصورة النموذجية.

هذا الكتاب مكرس لدراسة ذلك النموذج الذي تجلّت ملامحه في حياة محمد ﷺ، ومدى توافقه مع ما نعرفه اليوم من حقائق عن طبيعة وممارسة القيادة.

إنني أعتقد بوجود مفهوم عالمي شامل للدور الذي يمثله القائد، وعلاوة على ذلك فإنني - وبفضل اكتشافٍ وفّقْتُ إليه - انظر الفصل الثامن - قد توصلت إلى وضع تعريفٍ لهذا المفهوم العالمي الشامل، يُعتبر الأفضل في بابهِ والأكثر دقة، وقد تم اختباره على مدى واسعٍ لاختيارٍ وتدريبٍ القادة، وبذلك فإن النظرية أثبتت عملياً وتمّ التحقق منها على مدى يزيد على نصف قرن، ولهذا أنا أزعم الآن أنها صحيحة.

وكما أن هذا الكتاب ليس عبارة عن سيرة محمد ﷺ، فهو أيضاً ليس كتيباً تعريفياً عن القيادة.

إن من أسلوبِي في الكتابة، أن أختم كل فصل بمجموعة من النقاط الرئيسة.

تشكل اللؤلؤة حول حبة من الرمل.

فكر في كل نقطة رئيسة على أنها حبة رمل !

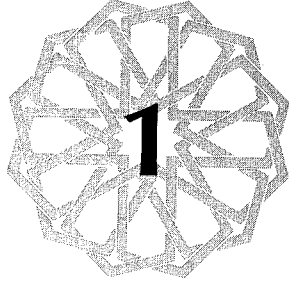
فإذا كسوتها مع الزمن بتجاربك وخبراتك وقيمك، سوف تتكون منها لؤلؤة لامعة ملونة، وسوف تكون لديك لؤلؤة الحكمة الخاصة بك.

أضيف هنا ملاحظة شخصية: عندما كنت في سن العشرين، خدمت لمدة سنة كضابط مساعد، في وحدة البدو، ضمن الفيلق العربي، الذي أصبح فيما بعد جيش المملكة الأردنية الهاشمية، كان اسماً مناسباً بسبب تسعمائة جندي وضابط في الفوج التاسع، جاؤوا من كافة القبائل العربية، ولدى مشاركتي في الفوج في القدس سنة 1954 أُعطيْتُ اسماً عربياً كنت أعرفُ به: سويلم، وقد بقي معي منذ ذلك الوقت، إنه صيغة مصغرة من اسم سلمان أو سليمان، وهو اسمٌ شائعٌ في عشائر البدو في شمال العربية السعودية.

أمل أن تجدوا في هذه الصفحات، صدىً لمشاعري نحو أصحابي من البدو، في ذلك الزمان الغابر.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ
وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا.

القرآن الكريم، السورة 33 الآية 21



مضارب بني سعد

أنا أعربكم، ولدت في قريش ولساني من بني سعد²

محمد ﷺ

في صباح أحد الأيام من سنة 570 للميلاد، غادر مكة رجل بدوي مع زوجته قاصدين جهة الشمال الشرقي، إلى حيث تقع خيامهم في نجد، المنطقة الصحراوية الكبيرة في وسط الجزيرة العربية إلى الشمال من صحراء النفود والربع الخالي، والتي تشكل هضبة ترتفع حوالي 1500 متر عن سطح البحر.

الرجل هو الحارث بن عبد العزى، من قبيلة بني سعد، التي هي فرع من القبيلة الأكبر: هوازن.

2 هذا الحديث لا يصح سنداً ولكن معناه صحيح، وفصاحة النبي ﷺ ثابتة وكذلك رضاعه من حليلة السعدية

ركب ناقته، وتبعته زوجته حليلة بنت عبد الله، راكبة على حمار، وهي تحمل ابنها الصغير عبد الله، وطفلاً صغيراً عمره ثمانية أيام، من قبيلة قريش من مكة، كانت تأخذه إلى منزلها لترضعه، كان هذا الصغير هو محمد ﷺ.

بعد رحلة استغرقت تسعة أيام، وصلوا إلى خيام بني سعد السوداء، في أحد الأودية، الذي كان عبارة عن وادي نهر جاف تتوزع فيه أشجار الأكاسيا البرية، والكلأ الخفيف الذي ترعى عليه قطعان الأغنام والماعز. وحالما اقتربوا من الخيمة، انطلقت منها طفلتان صغيرتان، هما أنيسة وجدامة (شيماء - حسب بعض المصادر) ابنتا حليلة، تبكيان من شدة التأثر، لتحية والديهما وأخيها العائدين، وللتعرف على الرضيع الصغير، أخيهما الجديد من الرضاعة.

سوف تتذكر شيماء، الكبيرة بينهما، لاحقاً، كيف ساعدت أمها في الأيام التالية بحملها محمداً ﷺ.

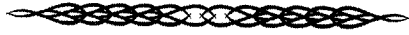
كانت تلك الخيمة الصحراوية البدوية - التي ستصبح منزل محمد ﷺ - طويلة ومنخفضة، ومصنوعة من الصوف الذي نسجته النساء، من شعر الماعز الذي أعطاه ذلك المنظر المميز، ذا اللون الأسود، أو البني الغامق، الذي اعتاد عليه الرحالة عبر العصور.

ينقسم (بيت الشعر) عادة إلى قسمين، بواسطة ستارة منخفضة، تفصل المكان المخصص للنوم والنساء والأطفال، عن المكان المخصص لسيد الخيمة، حيث يستقبل فيه ضيوفه وأقاربه من الرجال (ويسمى المنزل)، ويشارك فيه الطعام مع زوجته وأطفاله، يُفرش هذا الشطر من الخيمة عادة بسروج الإبل والبسط، إضافة إلى الوسائد المصفوفة حول الموقد، حيث أوعية الطهي المسوَّدة، وأدوات نحاسية لامعة لتحضير القهوة وتقديمها تكون جاهزة³.

3 لم يعرف العرب عادة شرب القهوة إلا بعد قرون من ذلك العصر.

لعل أقدم ذكريات محمد عن طفولته، تشتمل على اللّهُو مع الأغنام التي كانت تلعبُ وتتسابقُ فيما بينها، أو تستلقي في الظل تحت فنار الخيمة، لأنها كانت صغيرة جداً، فلا تقدّر أن تتبع أمّها في القطيع الرئيسي، حيث يطوف القطيع لساعات عديدة بقيادة الراعي، تحت حرارة النهار، وعلى مسافات الأميال، يقضم أوراق الأعشاب والنباتات البارزة.

ولعل من بين أكثر الأشياء التي أثارت شغف الطفل محمد، كان الماعز، الرشيقي السريع الحركة، وكذلك القطط شبه البرية، التي تطارد العقارب الصحراوية، وغيرها من الزوار غير المرحب بهم، حول جبال شد الخيمة.



يبدو أن محمداً ﷺ بقي مع عائلة حليلة حتى سن الخامسة أو السادسة، رغم أن الطفل الرضيع كان أحياناً يبقى مع عائلة مرضعته من البدو، حتى سن التاسعة أو العاشرة.

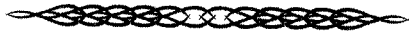
السبب الرئيسي لهذه العادة القديمة، عند أهل مكة، في اتخاذ المرضعات من البدو لأولادهم، كان صحياً: فالأولاد الذين ينشؤون في الخيام السوداء المفتوحة، يكتسبون الصلابة والقوة، بينما أولئك الذين ينشؤون في البيوت المغلقة، وغير الصحية، يكونون عرضة للإصابة بأمراض قاتلة، كالحمى والطاعون، بينما الهواء الجاف النظيف في صحراء نجد، والرياح المتواصلة النقية، وأشعة الشمس الصحية، كانت تجعل خيام البدو في الصحراء، كبني هوازن، خالية من الأمراض نسبياً.

وقد توفي والد محمد ﷺ، ثم والدته، بالحمى، وهما في ريعان الشباب، وتركاه يتيمًا، في سن السابعة، فلا عجب أن كانت حليلة، أمه البدوية، تعني كثيراً بالنسبة له.

ولكن ثمة دافعاً أعمق، جعل العائلات المكية الشريفة، ترسل

هذه الممارسة لا تزال شائعة بين الشرفاء، أي العائلات المكية التي تنسب إلى محمد ﷺ، كالهاشمية مثلاً.

وقد اتبعت تلك العادة عائلات عربية أخرى بارزة حاكمة، فالأمير الحالي لقطر، مثلاً، تشرب مع حليب أمه مرضعته البدوية، المعرفة بالأخلاق والأساليب العربية البدوية للعائلات الحاكمة، كيف تحكم في السلام وتقود في الحرب، وتسمى هذه الأساليب عند العرب سُنَّة.



وبعد عودة محمد ﷺ إلى مكة، بستين أو ثلاثة، توفيت أمه آمنة، وكفله جدُّه عبد المطلب، الرجل الذي كان محمد يجله ويحترمه، وبعد وفاته انتقل محمد ﷺ إلى كفالة عمه أبي طالب.

وتخبرنا الروايات أن حليلة، مرضعة محمد ﷺ، عندما كانت تزور مكة بين الفينة والأخرى، كانت تطلب رؤيته، وعندما يراها محمد ﷺ تقترب من بيته، كان يرحب بها بحرارة قائلاً: أمي أمي، ويفرش لها عباءته لتجلس عليها معه، كما هي العادة عند البدو، في تكريم الضيف العزيز والترحيب به.

وفي إحدى سنوات القحط، حثَّ محمد زوجته الغنية، على تقديم هدية إلى حليلة، فأعطتها أربعين شاة.

مرةً أخرى وبعد خمسين سنة، قُدِّر لعائلة محمد الثانية من بني سعد، أن تستفيد من مشاعره نحوها، حيث إن الأخوة من الرضاعة، تعتبر عند البدو بقوة رباط الدم، الرباط المقدس في القبيلة.

حصل الأمر كما يلي: في شهر فبراير سنة 630 م. أي بعد مرور أكثر من خمسين سنة على طفولة محمد في خيامهم، نصب حوالي

أطفالها للرضاعة في خيام البدو، فكل العرب يعلمون، أنهم يرجعون في أصلهم إلى بدو الصحراء، وسكان الخيام، ورعاة الإبل والغنم والماعز، أولئك الرّحل في صحراء العرب الواسعة، ثقافتهم وقيمهم ولغتهم، كلها منتجات لحياة الحرية البدوية البدائية، في الخيام التي كان أجدادهم يصنعونها، من جلد الماعز الأسود أو البني.

وبحسب تقاليدهم، فإن الذين يراد لهم أن يكونوا قادة للعرب، ينبغي أن ينشؤوا على ألبان البدو، وأن تجري في عروقهم الدماء البدوية، التي يشاركون بها سائر العرب.

كان البدو أغلبية العرب في زمن محمد ﷺ، وكانوا يُعتبرون -أو على الأقل هم يعتبرون أنفسهم- أنقى وأشرف العرب.

عندما أظهر أحد سكان مكة إشارة استخفاف، نحو قبائل بدو الصحراء، أمام زائر من زعماء القبائل، فإن الزعيم تجاهلها بازدراء وتكبر، فأولئك البدو من القبائل العريقة الكبيرة، يعتبرون أنه لا يوجد على الأرض من هو أفضل منهم، ويعتبرون أنفسهم مساوين لتلك القبائل، إن لم يكونوا أفضل، مثل قريش، التي غادرت الصحراء، إلى تلك المنازل المبنية من الطين أو الحجارة، في بعض المدن والقرى الصغيرة.

وكذلك كان أبو بكر وعمر، الخليفَتان الأول والثاني، كلاهما كانت له تجربة الرضاعة في خيم الصحراء، وعندما سلك عمر عبر وادي ضجنان في الصحراء شرق مكة، حرك المنظر الطبيعي المألوف عنده، ذكريات عن طفولته من تلك الأيام البعيدة؛ التي أمضاها عند البدو، فقال لأصحابه: لا إله إلا الله، لقد كنت أرى إبل الخطّاب في هذا المكان في مدرعة صوف، وكان فظاً غليظاً يتعنّني إذا عملت، ويضربني إذا قصرت، وقد أمسيتُ وليس بيني وبينه وبين الله أحد.

وبما أن محمداً ﷺ، كان يمثل في نظر المسلمين، النموذج الأكمل للإنسان العربي، فقد ساعد ذلك على استمرار ذلك التقليد، عند الأسر النبيلة، بإرسال أطفالها الذكور إلى البدو، ليعتني بهم أهلهم بالرضاعة، ففي القرن التاسع عشر، على سبيل المثال، كانت

أربعة آلاف رجل من بني هوازن، كميناً لجيش من المسلمين يفوقهم عدداً بحوالي ثلاثة أضعاف.

وقع المسلمون في أزمة، بسبب التقدم بدون انتباه، في أسفل وادي حنين، بدون أن يرسلوا من يستكشف لهم المكان، لقد كان موقعاً مناسباً لكمين، وفجأة اندفع نحوهم مقاتلو هوازن، بصيحات الحرب، من كل الجهات، يلوّحون بنبالهم وسيوفهم، الأمر الذي أحدث هلعاً في صفوف المسلمين، وتحطمت صفوف الدفاعات الأمامية، وانسحبت نحو أسفل الوادي، وأحدثت إرباكاً في الجيش الأساسي.

أسوأ شيء يمكن أن تفعله كتيبة مشاة، هو أن تكشف مؤخرتها لرماح فرسان العدو، وهو ما فعله المسلمون وقتها.

يقول القرآن في آية تشير إلى تلك المعركة (حنين):

وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (السورة 9

الآية 25)

كان محمد ﷺ حاضراً في الوادي، وشهد تلك الساعة الصعبة (وليتهم مدبرين)، وكان في سن الستين، فوق بغلته البيضاء لابساً درعه، وحوله بعض أصحابه يحرسونه، وصاح بصوت عال قائلاً: 'أين تذهبون أيها الرجال، أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب.' استطاع قادة الجيش، أن يقنعوا عدداً من جنود المسلمين، بأن يعودوا ويشتبكوا مع مقاتلي هوازن، وجها لوجه، قال النبي ﷺ: الآن حمي الوطيس.

كان يراقب باهتمام كبير، حركة القتال المحتدم بين مد وجزر. إذا لم تتغلب قوات البدو على خصمها من الحملة الأولى الضاربة، فإنها نادراً ما تستمر في القتال طويلاً، لأنهم عادة ما يقتتلون لأجل الغنائم، أو الشرف، وليس الموت.

وهكذا خلال مدة وجيزة انهارت هوازن، وتراجعت قواتها لتنجو بأرواحها.

كان من بين الأسرى الذين حصل عليهم المسلمون من خيام بني هوازن، التي نصبت قرب ميدان المعركة، امرأة بدوية مسنة، كانت تعلن بصوت عال أنها أخت النبي.

في البداية لم يصدقها جنود المسلمين، لكن إصرارها على دعواها جعلهم يأخذونها إلى خيمة محمد، المصنوعة من قطع من الجلد المصبوغ بالأحمر.

خرج محمد ﷺ ليحييهم، فتقدمت المرأة المسنة وقالت: يا رسول الله، إنني أختك من الرضاعة، قال: 'وما علامة ذلك؟' قالت: عضه عضضتنيها في ظهري وأنا متوركتك، فعرف رسول الله العلامة، فبسط لها رداءه فأجلسها عليه، وخيرها وقال: إن أحببت أن امتعك⁴ فعندي محبة مكرمة، أ وترجعي إلى قومك فعلت، فقالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي، فمتعها رسول الله وردها إلى قومها.



عندما سمع رؤساء بني سعد بقصة الشيماء، وجدوا فيها فرصتهم، فقام رجل من بني سعد بن بكر يقال له زهير، يكنى أبا صرد، فقال: يا رسول الله إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك. فقال لهم النبي ﷺ: أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ فقالوا: بل ترد إلينا نساءنا وأبنائنا فهو أحب إلينا. فقال لهم: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس قوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم.

كانت العادة عند البدو بعد مثل تلك المعركة، أن النساء والأولاد لا يتعرضون للقتل أو الإيذاء، ولكنهم كانوا عرضة للبيع كعبيد، لكونهم يعتبرون جزءاً من غنائم الحرب، استمر ذلك حتى زمن الخليفة عمر، عندما أصدر أمراً بمنع استرقاق العرب. لا شك أنه كان على محمد ﷺ أن يلبي طلب زعماء بني سعد، كان يعير اهتماماً كبيراً لأمر كهذا، ولكن المقاتلين المسلمين أيضاً كانوا ينتظرون أن يحصلوا على حصتهم من غنائم النصر، والتي من ضمنها طبعاً الأسرى من بني سعد، رجالاً ونساء وأطفالاً. حلَّ محمد ﷺ المعضلة بفطنةٍ سياسيةٍ ملحوظة، فقال لرؤساء بني سعد:

أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس قوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله، في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكُم عند ذلك وأسأل لكم. وافق الجنود من أهل المدينة على تفويض النبي في شأن الأسرى أن يتصرف بهم كما يريد، ولكن قبيلتين من القبائل -فزارة وتميم- رفضتا أن تحذوا حذوهم، وتبعهما رئيس قبيلة ثالثة، بنو سليم. فقالت بنو سليم: بلى ما كان لنا فهو لرسول الله، خلافاً لرغبة شيخهم.

دامت المناقشة بين العرب حوالي ساعة أو أكثر، بحرية ومساواة بين الكل.

لا تستخفوا بتعقيدات الوضع، فكما يقول المثل عند البدو (يموت الصقر وعينه على الطريدة)، فالغنائم كانت هي الطريدة عند البدو، وكانوا متلهفين عليها كالصقر.

انتظر محمد ﷺ بصبر إلى اللحظة المناسبة، وعندما حانت تلك اللحظة كان جاهزاً لطرح التسوية الصحيحة، قال للرجال من بني سعد أن يناشدوا جمهور المسلمين، مستعملاً حكمته العملية

في نصحتهم بأسلوب صحيح، كما أظهر حكمة في اختيار الوقت المناسب ليستعمل نفوذه:

أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي، فله بكل إنسان ست فرائض من أول سبي أصيبه.

لقد كان يعرف البدو بشكل كاف ليدرك أن ستة من الإبل أعظم عندهم من عبء زوجة جديدة!

لاحظوا أيضاً أنه اقترح على قادة بني سعد أن يناشدوا المسلمين أن يشفعوا عنده، بعبارة أخرى، فقد أعطى المسلمين فرصة لإظهار شهادتهم، وفي ذلك شرف كبير لهم.

لقد كان محمد ﷺ يفهم جيداً طبائع العرب البدو التي فُطروا عليها.

شخص آخر تلقى هدايا من محمد ﷺ بعد غزوة حنين، كان القائد البدوي الشاب مالك بن عوف الذي كان قد أقنع بني هوازن بشن الحرب على المسلمين بعد فتح مكة⁵، وبالمناسبة فإنه فعل ذلك خلافاً لنصيحة أكثر حكمة قدمها دريد بن الصمة، الذي كان قائداً عسكرياً بدوياً متمرساً، حتى قيل إنَّ جِلْدَ فخذه كان بالغ الدقة، كأنه قرطاس، لكثرة امتطائه الخيل بلا سرج.

ورغم اعتلال صحته وكبر سنه، فقد تصرف بشجاعة ونبل القائد البدوي، ليُظهر أنه لم يكن جباناً عندما عارض الإعلان المتهور للحرب من قبل مالك بن عوف ضد المسلمين، وذهب دريد إلى المعركة على هودج محمول على جمل، وخلال الاضطراب الذي حصل في هوازن، وصل مقاتل شاب من بني سليم الذين كانوا يقاتلون مع المسلمين، اسمه ربيعة، وصل إلى الجمل فاستولى عليه،

5 أسلم مالك بن عوف وأعطاه النبي مائة من الإبل كما ورد في كتب السيرة النبوية.

ورأى دريداً في الهودج فضربه بسيفه، فلم يغن فيه شيئاً، فقال له دريد، بهدوء ورباطة جأش، بئس ما سلّحتك أملك.

كان البدو لا يتأثرون كثيراً بالموت، سواء موتهم أو موت غيرهم.

تابع دريد فقدم نصيحة لذلك المقاتل المبتدئ يعلمه كيف يقتله: خذ سيفي هذا من مؤخر الرحل ثم اضرب به، وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ، فإني كذلك كنت أضرب الرجال، ثم إذا أتيت أملك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة، فرب والله يوم قد منعت فيه نساءك.

فلما رجع ربيعة إلى أمه أخبرها بقتله إياه، فقالت: أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثاً.

نقاط رئيسية

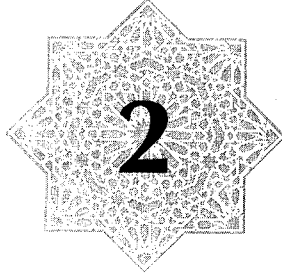
- على القائد أن يمثّل (أو يشخّص) الصفات المتوقعة منه، المطلوبة والمستحبة من قبل المجموعة التي يقودها، فقائد الجنود، مثلاً، يحتاج إلى أن يُظهر الشجاعة التي هي 'مزيّة الجنود' كما قال شكسبير.
- أظهر محمد ﷺ صفة الشجاعة في حُنين: وهي التي مكّنت الناس من مواجهة الخطر من دون أن يداخلهم الخوف، إنها ذلك الشيء الذي يمكّن الناس من مواجهة الخطر دون خوف، وأن يتصرفوا بشجاعة تحت الضغط وأن يثبتوا في أوقات الشدة.
- يشترك كافة أعضاء المجموعات العاملة، أو المنظمات أو المجتمعات، في أي مرحلة من التاريخ المعروف، في أمر واحد: أنهم جميعاً أشخاص ذوو طبيعة إنسانية واحدة وثابتة.
- وبالتالي فإن القائد العالمي هو الشخص الذي يُمثّل تلك

الخصائص الإنسانية المميزة: كالطيبة واللفظ والإنسانية والرحمة. هل رأيت تلك الصفات في محمد ﷺ؟

- صفة أخرى يتميز بها القائد العالمي، التواضع: ترجع هذه الكلمة في أصلها إلى (الأرض، التراب)، فعندما يبسط محمد ﷺ رداءه ويجلس على الأرض، على نفس المستوى مع الناس، فذلك من التواضع، قارنوا ذلك بملك يجلس عالياً على العرش، فوق رعاياه الذين يذلون أنفسهم أمامه، وكما يقولون في غانا: لا تتوقع أن يُقدّم لك كرسيّ، عندما تزور مكاناً يجلس فيه الرئيس على الأرض.

القبيلة تعلم رئيسها كيف يقوم بعمله.

مثل عربي



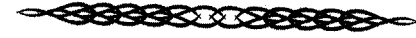
الراعي

مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ ۖ

محمد ﷺ

لا ندري على وجه الدقة، متى اشتغل النبي ﷺ في رعي الغنم، وكم كانت المدة التي مارس خلالها رعي الغنم، ولمن كان يقوم بهذا العمل، ولكننا نستطيع أن ندرك بشيء من التأمل أن محمداً ﷺ كان يعتبر تلك المدة نوعاً من العناية الإلهية، إذ يُفهم من كلامه أنه كان يرى ذلك أمراً ضرورياً، وحالة لا بد أن يمر بها كل من سيصبح نبياً، ولكنها بالطبع حصلت قبل أن يعلم أنه سيكون ذلك قَدَرُهُ بمدة طويلة. في هذا الفصل سوف أطلب منكم تقدير الدروس في القيادة، التي أخذها محمد ﷺ كشاب شديد الانتباه والذكاء، من خلال أيام وليالٍ طويلة من رعاية قطعان الغنم والماعز، في تلك الأودية المترامية، بين التلال والجبال، تحت الشمس المحرقة حول مكة.

ترى هل كان ذلك عندما جاء لأول مرة إلى الغار، حيث كان فيما بعد - حوالي سنة 610 م - يمكث أياماً وأسابيع ليخلو مع الله؟



كان داود عليه السلام في سن الثلاثين عندما تولى الملك على بني إسرائيل، واستمر حكمه أربعين سنة، وفي القرآن يُعتبر نبياً، ويُنسب إليه كتاب المزامير، والمزمور رقم (72-78) يلخص مهمته بهذه الكلمات:

واختار داود عبده، وأخذه من حظائر الغنم، من خلف المروضات أتى به، ليرعى يعقوب شعبه، وإسرائيل ميراثه، فرعاهم حسب كمال قلبه، وبمهاره يديه هداهم.

يظهر بوضوح في هذا المقطع، أن أقوى صورة رمزية للقائد هي صورة الراعي، وقد استعملت نفس تلك الصورة، من قبل المؤلفين الإغريق، أمثال هومر وزيونوفون.

وحسب المعلومات الحديثة عن القيادة تبدو هذه الصورة غنية على نحو فريد، فنحن نعلم الآن أن الشخص الذي في موقع القيادة عنده ثلاثة مهام جوهرية متداخلة: أن يحقق الأهداف المقررة للمجموعة التي يقودها، وأن يصون وحدة المجموعة ويحافظ عليها، وأن يلبي حاجات الأفراد الذين يقودهم.

وكما نعلم اليوم، فإن كلمة (قيادة) ترتبط بمفهوم (الرحلة)، فلو وضعنا هاتين النقطتين نصب أعيننا، فسوف يساعدنا ذلك على فهم لماذا هذه الصورة البلاغية (استعارة الراعي) غنية بالمعاني الضمنية والإضافية.

إنه نموذج مبسط ومفيد لقائد المستقبل، رغم أن الدروس ضمنية وليست جلية. يوجه الراعي قطيعه من خلال قيادته من المقدمة، ويمشي أحياناً

20 ميلاً في اليوم، بحثاً عن العشب المتناثر الذي ينمو في البرية. (كلأ البرية)، (مزمور 12-56، يوثيل 2-22) يُحتفى به في الربيع، عندما تكتسي الصحراء بخضرة العشب الجديد، والأزهار التي ستنفجر في حرارة الصيف، الأغنام الصغيرة بطبيعتها تلحق أمهاتها، بينما الأغنام الأكبر سناً، والتي تعيش في مجموعات، فإنها تتبع الكباش القائد المهيمن.

تمتلك الأغنام غدداً في حوافرها، تفرز رائحة خاصة، تُميز بها مسالكها.

ومنذ حوالي سنة 6000 (ق. م.) لاحظ سكان حوض البحر المتوسط تلك الظاهرة، أن الأغنام يمكن ترويضها وتعليمها، بحيث تتبع قائداً بشرياً، بدلاً من الكباش.

كان الرعاة في البراري والتلال، يربون الكلاب من أجل حماية قطعان الغنم والماعز، وليس من أجل توجيه القطيع وقيادته، وكقاعدة عامة، يمشي الراعي أمام القطيع، ولكنه ليس من النادر أن نراه خلفه، خاصة في المساء عندما يكون القطيع في طريقه نحو الحظيرة، وذلك من أجل أن يجمع الخراف الشاردة، لحمايتها من الذئب المتربص بها، وكثيراً ما يمشي الراعي محاذياً للقطيع، قريباً من منتصف خط انتشار الأغنام، وفي القطعان الكبيرة يمشي الراعي الرئيس في المقدمة، بينما يهتم الراعي المساعد بمؤخرة القطيع.

كان الحفاظ على وحدة القطيع أمراً أساسياً، وأن تبقى الأغنام قريبة من بعضها بعضاً من أجل سلامتها.

لا يبتعد الراعي كثيراً عن القطيع، بل يحرص على أن تبقى الأغنام ضمن حدود سمعه وبصره.

تعتمد الحيوانات المفترسة، كالذئب والضبع، بشكل غريزي، إلى تشتيت القطيع، ومن ثم تقتل فرائسها من أفرادها، ولذلك كان تماسك القطيع ووحدته، أمراً مهماً عند الراعي، فإذا رأى خروفاً، أو ماعزاً، يتحرك بعيداً عن القطيع، فإنه يدعو ليعود، فإذا استمر

الخروف مبتعداً، رماه الراعي بحصوة من مقلاعه (النقيفة) بحيث تقع وراءه، وتجعله ينطلق مسرعاً عائداً إلى القطيع.

(إذا ضل خروفٌ طريقه) [انجيل متى 18:22] بين التلال وأخاديد البرية، فعلى الراعي أن يقرر هل يترك القطيع لبحث عنه أم لا، وإذا كان هناك عدد من الرعاة، يكون ذهاب أحدهم أمراً سهلاً، ولكن حتى في تلك الحالة، فإن مغادرة أحد الرعاة، سوف تؤثر على قوة الرعاة المجتمعين، ذلك أن الخطر الرئيسي يتمثل في غارات المسلحين، أكثر من الحيوانات المفترسة، التي كانت تتجول في أنحاء الجزيرة العربية في تلك الأيام، كالفهد العربي (النمر الصياد)، والأسد، والدب، والثعلب، والضبع، والذئب، فأصبح الراعي رمزاً لاتحاد الجماعة، ومن هنا جاء المثل الذي اقتبسه عيسى عليه السلام: لأنه مكتوب: أني أضرب الراعي فتبتدد خراف الرعية. [انجيل متى]

وفي الليل، حيث يكون الخطر أكبر، كثيراً ما كان الرعاة يسوقون قطعانهم إلى كهوف، من الحجارة الكلسية المنتشرة بكثرة في التلال، أو يعملون حظائر من الجدران الحجرية، من أجل أن يحافظوا على سلامة قطعانهم ويقيهم مجتمعين معاً، وفي المناطق الصحراوية، حيث لا توجد حجارة، كان الرعاة ينشئون حظائرهم من الشجيرات الشوكية.

كانت الذئاب أحياناً تتحدى الكلاب، وتخترق حاجزها، ولذلك كان الرعاة يبقون بعض الحملان وصغار الأغنام قريبة من خيمتهم أثناء الليل.

يُنشد كاتب سفر سليمان (نش 1:8):

(أيتها الجميلة بين النساء، أخرجي على آثار الغنم، واراعي

جداءك عند خيام الرعاة.)

تتكوّن القطعان في الأراضي العربية من الغنم والمعز، وهذا أصعب للقيادة من الأغنام وحدها.

اللون الغالب على الماعز هو الأسود، أما الأغنام فالغالب عليها الأبيض، وهذا يسهل تمييزها من بعيد.

تفضل الماعز التهام الأوراق الصغيرة، ولكنها تأكل الشجيرات الصحراوية، بينما تفضل الأغنام العشب الطري القصير، إذا أمكن لها أن تجده.

ولكن الأغنام والماعز في القطيع المختلط، لا تتعايش دوماً بسعادة، وعلى الراعي أن يعمل على بقائهم معاً متكافين بانسجام. هذه الطبيعة في الأغنام والماعز، جعلت من الضروري غالباً فصل بعضهم عن بعض في الحظيرة.

في كافة المجموعات والتنظيمات البشرية، توجد ميول مشابهة نحو الانقسام الداخلي.

كانت الرحلات الدائمة مصدراً للأخطار والمشقات على الرعاة وقطعانهم معاً، فقد شارك الرعاة أغنامهم تلك المخاطر على قدم المساواة.

لم يكن أولئك الرعاة يحملون معهم سوى حقيبة أو محفظة، إضافة إلى حبل وبعض المتاع.

كانت شمس الصيف تلفح بحرارتها الرعاة والقطعان خلال النهار، وكانوا في الشتاء يرتعشون من الصقيع والرياح الباردة.

وقد واجه الرعاة والقطعان أخطاراً عديدة، مثل التعرض لهجمات الحيوانات المفترسة، والدوس على الأفاعي القاتلة الكامنة بين الأحجار الكلسية.

وليس مستبعداً أن يكون الرعاة قد عرفوا نوعاً من الحب، نحو خرافهم التي حملوا مسؤوليتها، وقد كان بمقدورهم تمييز كل واحدة منها ومناداتها باسمها، ومن هنا فلا يستغرب أن يطلق على الله، على سبيل الاستعارة، الراعي الحريص، كما في المزمور الثالث والعشرين، عندما يتحدث عن شخص -وكانه خروف- قد حصل على كل حاجاته من الله الراعي (الرَّبُّ رَاعِيٌّ فَلَا يُعَوِّزُنِي

شَيْءٌ) [المزمور 23]، وكما هو الحال في سائر المقارنات، فإن استعارة الراعي لقائد الناس لا تصلح إلا بمعنى محدد، تفسد فيما وراءه، فالناس يختلفون عن الخراف بشكل كلي، في جوانب متعددة ومهمة، ولكن الصورة البلاغية تشتمل على مجموعة مهام القيادة المتعددة، ففي قطيع الغنم، توجد ثلاثة أنواع أساسية من الحاجات التي يحرص الراعي على تحقيقها:

1. يحتاج القطيع إلى إيجاد الطعام، ولذا فإن الراعي يقودهم إلى وجهتهم المطلوبة.
2. والراعي يحافظ على الخراف مجتمعين، في وحدة متماسكة منسجمة.
3. وأخيراً فإن الراعي يلبي حاجاتهم الفردية، فالرعاة يعرفون كل خروف أو عنزة باسمها الخاص، ويتأكدون من حصولها على الطعام المناسب، والماء الكافي، ويدهنون بالزيت جراحها الناجمة عن الأشواك، ويعتنون بالحيوان المريض حتى يستعيد عافيته.

وعند غروب الشمس، تجيء لحظة بهيجة، حين يعود الراعي بخرافه سالمين، إلى زريبتهم، مثلما انطلق بهم في الصباح. أن تقود الناس في رحلة فذلك شيء، وأن تعود بهم إلى بيوتهم سالمين، فذلك شيء آخر.

هذا القياس ينفع لكل أشكال القيادة، فالقائد العسكري الناجح، مثلاً، هو الذي يعود بالجيش سالماً إلى الوطن، ومبتهجاً بالنصر، إذا كان منتصراً، حيث يُستقبل بالأفراح والاحتفالات اللاتئة بمثل هذه العودة. إنها أجمل تجربة بالنسبة للجنود في مختلف العصور.

لقد عمل كل من موسى عليه السلام وداود عليه السلام في رعي الغنم، والعبرة هنا أن بعض المهارات والصفات المكتسبة من خلال رعي الغنم، يمكن تحويلها والاستفادة منها، في قيادة الناس، ومن ثم قيادة الأمة في نهاية المطاف، كما قاد داود عليه السلام الشعب الذي ائتمنه الله عليه،

(بيد ماهرة⁷)، ومن الصعب أن نستبعد كذلك أن يكون عيسى عليه السلام في صباه قد اعتنى بالخراف والماعز للعائلة والجيران بين تلال الجليل، فصورة الراعي⁸ تخبر عن تعلمه للقيادة.

إن كلمة (الصالح) في العبارة المنسوبة إلى عيسى عليه السلام (أنا هو الراعي الصالح) (إنجيل يوحنا 10:14) هي باليونانية (كالوس) ومعناها: الماهر، خلافاً لكلمة أغاسوس، التي تعني: الصالح أخلاقياً.

إن القادة الرعاة، الصالحين، يتقنون مهارات القيادة، فهم يعرفون عملهم، إنهم ليسوا من نوع المرتزقة الذين يفرون هارين عند أول إشارة خطر، بل إنهم يضحون بأرواحهم إذا لزم الأمر، من أجل رعيته التي ائتمنوا عليها.

لقد كان مشهد قطيع من الخراف بدون راعٍ، يُمثّل في الماضي أبلغ صورة مُعبّرة عن الحاجة إلى قائد، وفي أحد أقدم ألواح الطين التي عُثر عليها، فيما يُعتبر من أقدم الكتابات في العالم، وُجد منقوشاً عليه باللغة المسمارية مثل سومري يقول: الجنود بلا قائد كالخراف بلا راعٍ.

ومن خلال إدراك الحاجة إلى القيادة، فقد استجاب موسى عليه السلام إلى دعوة الله، ليتولى قيادة الناس وليصبح القائد المنشود، وفي الوقت المناسب، قام موسى عليه السلام بتعيين خليفة له، يوشع، الذي تحلّى بروح قيادية، فكان (يخرج أمامهم ويدخل أمامهم ويخرجهم ويدخلهم، لكيلا تكون جماعة الرب كالغنم التي لا راعي لها) [سفر العدد 27:17].

7 يشير إلى المزمور 78:72 (وبمهارة يديه هداهم).

8 كثيراً ما جرى تصوير المسيح في لوحات فنية على صورة راعي الخراف استناداً إلى مقولته الشهيرة (أنا هو الراعي الصالح)

في أحد الأيام، كان محمد ﷺ يمشي مع بعض أصحابه، في ظلال أشجار النخيل، في المدينة، عندما مر به بعض الغلمان، حاملين سلالاً من ثمار الأراك⁹ فقال¹⁰ لهم: (عليكم بالأسود منه، فإنه أطيبه). قالوا: أكنت ترعى الغنم؟ قال: (وهل من نبي إلا وقد رعاها).

النقاط الرئيسية:

- تكون القيادة من المقدمة (الأمام)، وقد لا يكون القائد دائماً في المقدمة بالمعنى الفيزيائي، مثلما يحصل أحياناً أن يعمل الراعي من خلف القطيع الماشي، ولكن بالمعنى الروحي فإن القائد هو الذي يكون في المقدمة.
- القدوة أهم شيء في القيادة، كما يقول المثل¹¹: عندما يكون الراعي فاسداً، فإن الرعية ستكون كذلك.

9 شجرة الأراك معروفة، يؤخذ منها السواك، وثمارها تسمى الكباش، وهو عبارة عن كرات حمراء تشبه الكرز، إلا أنه أصغر منه قليلاً.

10 في الحديث الصحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا مع رسول الله ﷺ نجني الكباش، وإن رسول الله ﷺ قال: (عليكم بالأسود منه، فإنه أطيبه). قالوا: أكنت ترعى الغنم؟ قال: (وهل من نبي إلا وقد رعاها)، وفي شرح البخاري (فتح الباري): (وإنما قال له الصحابة 'أكنت ترعى الغنم' لأن في قوله لهم 'عليكم بالأسود منه' دلالة على تمييزه بين أنواعه، والذي يميز بين أنواع ثمر الأراك غالباً من يلازم رعي الغنم على ما ألفوه).

11 في شرح الأربعين النووية عند حديث (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) قيل: إن السمع والبصر والشم كالطاقات تنظر منها النفس، فالقلب هو الملك، فإذا صلح الراعي صلحت الرعية وإذا فسد فسدت الرعية.

• لا يقتصر عمل الراعي على قيادة القطيع عبر البرية نحو المرعى والماء، بل عليه أن يحافظ على وحدة القطيع، وأن يهتم بكل خروف على حدة، فالراعي يعرف كل خروف باسمه، كما أن الخروف يعرف صوت الراعي.

• الراعي الصالح (بمعنى الماهر) هو الذي يحقق - على مستوى قطيع من الخراف - الدوائر الثلاث المتداخلة للحاجات، وهي ذاتها توجد في كافة مجموعات العمل البشرية، في أي وقت عبر التاريخ: أن يحقق المهمة العامة لتلك المجموعة، وأن يبقئهم معاً كمجموعة عمل موحدة، وأن يحقق احتياجاتهم كأفراد متمثلين في المجموعة.

• الراعي الصالح (بالمعنى الأخلاقي) هو الذي يهتم برفاهية الناس، وتحقيق سعادتهم، لا بسلبهم واستغلالهم.

عندما يستحق القادة الاحترام، فإن الناس سيرغبون في العمل لهم، وعندما تستحق فضائلهم الإعجاب، عندئذ يمكن أن ترسخ سلطتهم. هواي نان تزو¹²

12 فيلسوف صيني من القرن الرابع قبل الميلاد، من حكماء الطاوية (أو التاوية) واسمه ليوآن (Liu An).



قائد القافلة

إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم¹³

محمد ﷺ

اشتركت قريش، قبيلة محمد ﷺ، في اتحاد قبائل صحراء نجد الذي عرف باسم بني كنانة، وكالقبائل الأخرى، فقد كان من عادتهم المشاركة في الحج السنوي إلى وادٍ غير ذي زرع، بين الجبال القاحلة، حيث النبع المقدس (زمزم) الذي يفيض بمائه البارد النقي إلى سطح الأرض.

وعلى مقربة منه يوجد حجر أسود نيزكي غير عادي، كان معظماً عند العرب في الماضي، وفي عصر محمد ﷺ كانوا يلمسون الحجر الأسود الموقر، أو يقبلونه، قبل تقديم الأضاحي.

13 رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ

عُرفَ هذا المكان المقدس تاريخياً باللغة العربية باسم مكة، ورد هذا الاسم عند بطليموس بلفظ (ماكورابا) ومعناه في عدة لغات سامية: معبد.

نحن نتخيل المعبد كبناء كبير، كما في مصر، أو المعابد الرومانية، ولكن مفهوم المعبد عند قدماء الساميين هو ببساطة: مكان مقدس، محدد بسياج يكون عبارة عن جدار من الحجارة، الغاية الأساسية منه أن يمنع الحيوانات الشاردة من الاقتراب.

كان قصي زعيماً لقريش، عندما كانوا لا يزالون يسكنون الصحراء، تزوج ابنة زعيم قبيلة خزاعة، الذي نصب نفسه حارساً للمعبد في مكة، وعندما مات أبوه بالتبني ساعده أقراره من بني كنانة، وتغلب قصي على منافسيه من خزاعة، وتولى حكم مكة، وتم إقصاء بني خزاعة، الذين حملوا خيامهم على جمالهم، وعادوا إلى الحياة البدوية، من حيث جاؤوا: نجد.

لقد كان قصي أول من بنى بيتاً من الحجارة حول المعبد (الكعبة) وبدأ إدارة الحج السنوي لأجل الربح، وفرض ضريبة على رجال قبيلته، لمساعدة الحجاج الفقراء، الأمر الذي أعطاه مكانة مرموقة بين قبائل الصحراء، الذين يقدرّون عالياً كرم الضيافة.

كان عبد المطلب، جد محمد الذي كفله لمدة سنتين عندما كان يتيمًا، كان حفيداً لأحد أبناء قصي، وهذه كانت رسالته إلى رجال القبائل:

يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته، وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوّار الله، يعظمون حرمة بيته، فهم ضيف الله، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه، وقد خصكم الله بذلك، وأكرمكم به، وحفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره، فأكرموا ضيفه وزوّاره، فأقروهم واسقوهم.

أعطت قريش أيضاً الحماية والأمان لعابري السيل، الذين يتوافدون إلى الحرم المقدس بأعداد كبيرة، إضافة إلى تأسيسهم للحظر على الحروب وأعمال العنف حول مكة خلال موسم الحج السنوي.

كانت مكة واحدة من عدد من المدن التجارية والزراعية الصغيرة في منطقة الحجاز الجبلية في غرب الجزيرة العربية، كانت هناك أيضاً مجتمعات حضرية في اليمن على شاطئ الخليج. كانت غالبية هذه المدن والأسواق تعتمد بشكل رئيسي على مبادلة الصوف والجلود من الرعاة مقابل الحبوب وزيت الزيتون والخمر الذي كان يعتبر الرفاهية الأساسية.

ومنذ حوالي سنة 500 أضاف تعدين المعادن الثمينة في الحجاز بعداً جديداً، فبعض المناجم كانت تمتلكها وتشغلها قبائل من البدو مثل بني سليم، فزاد إنتاج المعادن الثمينة من ازدهار المنطقة، على الأقل أصبحت بعض القبائل البدوية الآن تستهلك منتجات المناطق الحضرية.

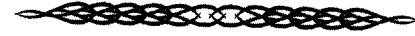
تعاونت مجموعات من التجار لاستيراد البضائع من سوريا، وشكّلوا شبكات بين القبائل للسماح لقوافلهم بالمرور بسلام. ومع مرور الزمن أصبح العرب الحضريون (سكان القرى والمدن الصغيرة التي نمت حول الواحات ومصادر المياه - الجزيرة العربية لا يوجد فيها أنهار-) أصبحوا أكثر تميزاً عن أقربائهم البدويين، قاطني الصحراء.

لقد افتخروا بصفة الحلم، وهي تشتمل على عدة خصال منها دماثة الأخلاق والرحمة والرفق والصبر، واعتبروا أن القبائل البدوية قوم سريعو الاهتياج وغير جديرين بالثقة، ومع كونهم أشداء ويجيدون مهارات القتال في حروب الصحراء إلا أنهم بحاجة إلى من يقودهم ويوجههم، ومن دون التنازل عن شيء من حريتهم الأساسية واستقلالهم، أثبتوا استعدادهم لقبول قيادة القبائل الأعلى منزلة في المدن، مثل قريش في مكة، وثقيف في الطائف، عندما يدعو سبب لذلك.

في الحرب العالمية الأولى ظهر نموذج عصري لنفس المبدأ عندما قاد شريف مكة وأبنائه الأربعة (يرجع نسبهم إلى سلالة محمد الهاشمية في قريش) الثورة العربية ضد حكم الأتراك، بدعم وتمويل من حلفائهم الإنكليز والفرنسيين.

دخل جيش الشرفاء تحت قيادة فيصل دمشق سنة 1918 وكان مكوناً من قوة صغيرة من الجنود العرب الفارين من الجيش التركي، وحشد أكبر من رجال القبائل البدويين من قبائل مختلفة على طريق دمشق.

• ونذكر على سبيل المثال عودة أبو تايه، القائد الشهير للحويطيين، الذي سنلتقيه مرة أخرى في الفصل التالي، الذي قاد رجاله في عملية الاستيلاء على ميناء العقبة، نقطة التحول في الحملة. والناجي من هؤلاء الأبناء، عبد الله وابنه حسين، كملك للأردن، اعتمد أكثر من مرة على الرغبة التاريخية للقبائل البدوية في تقديم ولائهم لقادة يصل نسبهم إلى قبيلة النبي ﷺ.



كان محمد ﷺ يوقر جده، كما تذكرون في معركة حنين، عندما راح ينادي قائلاً: أنا محمد بن عبد المطلب.

كان عبد المطلب شيخاً، بحسب العادات العريقة، يجسّد في شخصيته القيم التي يقدرها العرب ويتوقعونها من قادتهم. قالت أميمة بنت عبد المطلب ترثي أباه:

ألا هلك الراعي العشيرة ذو الفقد

وساقي الحجيج والمحامي عن المجد

ومن يؤلف الضيف الغريب بيوته

إذا ما سماء الناس تبخل بالرعد

لاحظوا صورة (الراعي) تعود هنا كلازمة موسيقية.

ترى هل حلم محمد ﷺ عندما كان صبيّاً أن يكون راعياً مثله؟ لم يكن عند قريش رئيس قبيلة معترف به، ويرجع ذلك إلى النزاعات المستمرة بين الجماعات المختلفة الأنساب، ربما يمكن اعتبارهم قطعاً بلا راعي، هذا الغياب للقائد القوي سيكون عاملاً لمصلحة محمد ﷺ فيما بعد، عندما افتقرت قريش إلى قائد ذي مكانة وحكمة كافية للتعامل مع الرجل الذي أصبح يمثل شوكة في خاصرته.

كانت العائلات القرشية البارزة قد وزعت فيما بينها مهمات القيادة، بعد عدة أحداث سابقة معقدة، فتقاسمت المسؤوليات مثل سدانة الكعبة ودار الندوة وحق حمل راية القبيلة في الحرب، وجمع الضرائب الخيرية لتأمين الضيافة والملجأ للحجاج الفقراء، وطقوس الكهانة أمام أصنام آلهة القبائل، مثل هبل، التي كانت موضوعة ضمن المنطقة المقدسة الكبيرة.

كانت القرارات ذات الأهمية تتخذ بين قادة العشائر، بالوصول إلى اتفاق بطريقة بالغة الاحترام عند البدو، وهي: المجلس، فكانت الاجتماعات تعقد في دار الندوة، المبنية من الحجارة قريباً من الكعبة.

في العصر الإسلامي صارت كلمة مجلس تطلق على مكان يخصصه الخليفة (السلطان - الأمير) لعامة الناس، ولكنه حافظ على معناه ك لجنة عامة لبحث قضايا سياسية أو أحكام قضائية، ما يقابل في الإنكليزية (برلمان) وأصله في الفرنسية (بارل = parler = يتكلم) يرجع أصل الكلمة إلى التكلم والتباحث كما في المؤتمرات.

بدون أية قوات شرطية في تنظيمه، يعتمد الرئيس على سلطته الشخصية وقوة شخصيته وحكمة قراراته ليقود، عندما لا يستطيع أن يأمر.

يصف الرحالة الإنكليزي تشارلز داوتي¹⁴ من القرن التاسع عشر بأسلوبه الثري الرائع مجلس الشيخ مطلق، شيخ قبيلة فزارة:

عندما يمتلئ المجلس في خيمته، يجلس هو خارجاً مع عامة الناس مفتخراً بتواضعه مع كونه الشيخ الكبير، مركزاً نظره على الأرض، ولكنها كانت نظرة يشوبها القلق، إن سلطته تبقى في حالة سبات إلى أن تأتي مناسبة ما، إنه يقود بكلامه البدو الذين تصعب قيادتهم، إن شيخ قبيلة البدو ليس مستبدًا.

في الحقيقة، إن قيادة مثل هذا الاجتماع للوصول إلى قرار عملي، يحتاج ليس فقط إلى سلطة المركز وهيبة الشخصية، ولكن أيضاً المهارة. هل تتصورون محمداً ﷺ عندما كان صبيًا جالساً على حافة خيمة مفتوحة، خلال انعقاد اجتماع، لأجل أن يكتسب تلك المهارة؟ أنا أفعل.

لعل نموذجاً معاصراً يوضح لنا إمكانية ذلك: كان والد نلسون مانديلا رئيساً لقبيلة تمبو، وكان يأخذه معه وهو غلام فتي إلى القصر الكبير، حيث يجتمع كبار رؤساء القبيلة للتباحث في شؤون القبيلة، ويحضر من يشاء من شعب التمبو. كان قائد الرؤساء يحيط به أعضاء المجلس، يسترجع مانديلا ذكرياته فيما بعد فيكتب:

إن تصوري الأخير عن القيادة تأثر بشكل عميق بمراقبة رئيس مجلس الحكام... راقبت وتعلمت من الاجتماع القبلي الذي كان يعقد بانتظام في القصر الأكبر، وقد اتبعت في قيادتي المبادئ التي تعلمتها أولاً هناك. لقد سعت دوماً لأن أستمع إلى كل ما يقوله كل شخص في النقاش قبل أن أغامر برأيي الشخصي، وكان رأيي دائماً يمثل خلاصة ما سمعته في النقاش.

عندما كان محمد ﷺ في سن الثامنة عشرة تقريباً، حضر مجلساً قرر فيه زعماء قريش الدخول في حرب نشبت في الصحراء، فقد أغار بعض رجال قبيلة هوازن على قافلة قرب مكة وقتلوا قائدها، وكان من بني كنانة، وكانت القافلة تحت حماية من تلك القبيلة. ومما زاد الطين بلة أن الهجوم وقع في الشهر الذي قبل موسم الحج إلى مكة، كان محظوراً ممارسة أي نوع من العنف في جوار مكة خلال ذلك الوقت، وهكذا فقد اندلعت الحرب بين القبيلتين واستمرت خمس سنوات، وليس من الصعب تخمين إلى جانب من وقف أهل مكة.

رافق محمد ﷺ أعمامه في إحدى المعارك، وقيل إنه كان يساعد بجمع السهام¹⁵.

تصور لنا هذه القصة، كيف أن المكين لم يعزلوا أنفسهم عن قضايا الصحراء السياسية، حتى لو رغبوا بذلك، وأنه لم تكن هناك طريقة أفضل بالنسبة لمحمد ﷺ ليتعلم سياسة الصحراء من أن يكون قائد قافلة، وإنه تخمين من جهتي لا أكثر، أنه كرجل شاب قد فعل ذلك بشكل جيد.

14 تشارلز داوتي (1843 - 1926) (Charles Doughty) شاعر ورحالة إنكليزي. أهم أعماله كتاب الترحال في صحاري العرب (Travels in Arabia Deserta) الذي كتبه عام 1888 وهو عبارة عن قصته عندما جاء عام 1876م ومكث عدة سنوات جالاً من خلالها أجزاء من الجزيرة العربية تحت اسم مستعار 'خليل'.

15 يروي عن رسول الله ﷺ أنه قال في حرب الفجار: كنت أنبل على أعمامي (أي أجمع نبل عدوهم إذا رموهم بها) وقال في حديث آخر: قد حضرتها (حرب الفجار) مع عمومي ورميت فيها بأسهم

كانت قريش تعتمد على عمل القوافل لأنهم كانوا تجاراً، فقد عملوا في التجارة على نطاق واسع مع سوريا في الشمال واليمن في الجنوب، كانت قوافلهم تقطع رحلة من ألف ميل من وإلى دمشق. حملوا الأصباغ والمنتجات الجلدية الجاهزة المصنوعة من الجلود التي حصلوا عليها من القبائل البدوية، إضافة إلى أشياء أخرى. غالباً في المواسم الكبيرة التي تقام في وقت الحج. كل قافلة كبيرة كان لها قائد، وهذه الكلمة تطلق على المرشد، كما تطلق على من يقود الغارة على جمال قبيلة أخرى، وعلى القائد العسكري أيضاً.

في الفيلق العربي، حيث كانت خدمتي في سن ال 20، كان قائد الفوج البدوي له نفس الاسم.

القيادة من قاد يقود، ومنها المقود: الحبل الذي يستعمل لقيادة الحصان أو الجمل من رأسه، غير أنه لا يجرؤ أحد في المجتمع العربي على أن يلقب نفسه بالقائد أو الزعيم، فذلك يشبه أن يكون وساماً أو إطرأ.

الشيء نفسه بالنسبة للغة الإنكليزية، إنه لمن المدهش ملاحظة هذا التقارب بين اللغتين العربية والإنكليزية في هذه النقطة.

ففي الإنكليزية نجد أن كلمة قيادة تدل على الطريق، السبيل، مسار السفينة في البحر، إن الكلمة الأنغلوساكسونية *lead* هي جذر الكلمات الإنكليزية (*leader, leadership and to lead*) يقود، قائد، قيادة، إنها تتصل بالفعل *laedan* أن يذهب أو يسافر، أو أنها صيغة سببية: يجعل الشيء يذهب.

في الحقيقة إن أصلها من شمال أوروبا، مع مشابهة صوتية لما يرادفها في اللغات القديمة: الاسكندنافية والألمانية والهولندية. واضح أن القيادة تحمل مفهوم الرحلة، القائد حرفياً هو الذي

يدل على الطريق بأن يسير في المقدمة، والذي أيضاً يجعل الآخرين يذهبون في رحلة، ويحافظ عليهم مجتمعين في كيان فلا يفقدوا وحدتهم ولا يتباعدوا عن بعض، تذكروا الراعي!

والمقطع الأخير من كلمة قيادة (*leadership*) تشتق من الفعل الأنجلوسكسوني (*to shape*): يشكل، ويُعرف في اللغة الإنكليزية كلاحقة، فالكلمة التي تنتهي ب (*ship*) لها معنيان بارزان، وهذا أمر محير نوعاً.

فهي قد تعني أولاً: منصب أو منزلة أو موقع القائد.

وثانياً تعني: خصائص وصفات كونه قائداً.

يصبح التمايز أوضح عندما يُلاحظ أنه ليس كل الذين يشغلون أدواراً أو مناصب قيادية - سواء بالولادة أو بالانتخاب أو بالتعيين - تكون لهم المقدرة الشخصية والمعرفة بكيفية القيادة.

فمثلاً، المؤرخ اليوناني بلوتارخس¹⁶، وصف إمبراطوراً رومانياً اسمه غيوس أنطونيوس بأنه: رجل غير مؤهل للقيادة بأي شكل، لا يصلح لأن يقود بشكل جيد ولا حتى سيء.

يوجد عند الأفارقة مثلاً يصف مثل هذا الحاكم:

قد يبقى جذع الشجرة في النهر لسنوات، ولكنه لن يصبح تمساحاً أبداً.

قد يتم تعيينك كقائد أو مدير، ولكنك لست قائداً حتى يصادق على تعيينك أولئك الذين تقودهم بقلوبهم وعقولهم.

بلوتارخس *Plutarchos*

16 فيلسوف ومؤرخ يوناني (46-120) م.

ولعل موهبة القيادة عند محمد ﷺ تكشفت منذ قيادته للقوافل التجارية، ما رأيكم؟

كان دور قائد القافلة التجارية على درجة كبيرة من المسؤولية. فمثلاً: قبل أن تغادر القافلة مكة يجب اختيار مائة أو ربما أكثر من الجمال وسائقها واستئجارهم، يجب تجميع البضائع وتحزيمها على الجمال، شراء المؤن والخيام وتحميلها، إعداد الأسلحة، تأمين المال اللازم لمصاريف الطريق وأجور سائقي الجمال ووضعه في مكان آمن، وحالما تصير القافلة في الصحراء باتجاه الشمال، تصبح مسؤوليتها على أكتاف القائد وحده لا غير.

بمجرد أن تغيب مكة عن النظر، لا يكون عنده أية وسائل للتواصل مع مالكي القافلة.

وليس هناك من تأمين على القافلة، فإذا تعرضت أية ممتلكات في عهده للضرر أو السرقة، فهي مسؤولية قائد القافلة وأقاربه، الذين يلزمون بالتعويض على المالك.

كانت القبائل البدوية تفرض ضريبة حماية على القوافل التجارية التي تمر في مناطقها، كان ذلك أحد مصادر المال، ولذلك فإن العامل الأساسي بالنسبة لقائد القافلة كان التفاوض مع القبيلة المناسبة، والاتفاق على المبلغ المناسب أو البضاعة التي تدفع مقابل الحماية.

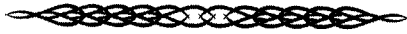
كان البدويون يحترمون النسب الشريف، ولذلك فقد كان أفضل ضمان لأمان القافلة، وهي تمشي ببطء عبر البرية، كان الشخصية المهيبة لقائدها، والاحترام الناتج عن كونه ينتمي إلى أسرة شهيرة في مكة.

كما إنه من الطبيعي أن يرافق القائد قافلته شخصياً بصورة دائمة.

كان اليونان البيزنطيون في عصر محمد ﷺ يطلقون على قائد القافلة لقب synodiarch وتعني الرئيس أو الحاكم أو القائد لاجتماع أو مجلس.

في تدمر، شمال الجزيرة العربية، أنشأ التجار نصباً لأحد قادة القوافل سنة 193 م. عرفاناً له بالجميل. وقد نقشت عليه العبارة التالية:

أقيم هذا التمثال تكريماً لتيمارس قائد القافلة، تم إنشاؤه لأجله من قبل أعضاء القافلة الذين كانوا برفقته من كاراكس Charax لأنه دفع نفقاتهم 300 قطعة ذهبية وكان حريصاً على سعادتهم.



قال محمد ﷺ ذات مرة: سيّد القوم خادمهم¹⁷، ماذا كان يقصد؟ إن القائد الحقيقي يخدم أولئك الذين يقودهم، ففي نفس الوقت يحقق حاجتهم بأن يكملوا رحلتهم بأمان، وأن تتوفر حاجاتهم كمجموعة متماسكة، وحاجاتهم كأفراد، حيث أن كل فرد في الرحلة قد تكون له احتياجات صغيرة أو مشاكل تطرأ أثناء الرحلة. هل تودون أن تروا محمداً ﷺ كقائد خدوم؟ إن هذا ممكن، لحسن الحظ.

كان جابر بن عبد الله مع محمد ﷺ في إحدى الغزوات، وكان يركب جملًا ضعيفاً مُسْتَأً، ولدعه يروي لنا القصة¹⁸ بنفسه:

خرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع مرتحلاً على جمل لي ضعيف فلما قفل رسول الله ﷺ جعلت الرفاق تمضي وجعلت أتخلف حتى أدركني رسول الله ﷺ فقال: مالك يا جابر؟ قلت: يا رسول الله

17 الحديث ضعيف، على أنه قد يقال إنه حسن لغيره لتعدد طرقه.

18 الحديث بهذا اللفظ في مسند أحمد، يرويه وهب بن كيسان، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، ورواه البخاري ومسلم باختصار واختلاف يسير في ألفاظه.

أبطأ بي جملي هذا قال فأنخه وأناخ رسول الله ﷺ ثم قال: أعطني هذه العصا من يدك، أو قال اقطع لي عصا من شجرة، ففعلت، فأخذ رسول الله ﷺ فنخسه بها نخسات، ثم قال اركب، فركبت فخرج، والذي بعثه بالحق، يواحق ناقته¹⁹ مواهقة، وتحدث معي رسول الله ﷺ فقال: أتبيعي جملك هذا يا جابر؟ قلت: يا رسول الله بل أهبه لك، قال: لا ولكن بعنيه، قلت: فسمني به، قال: قد قلت أخذته بدرهم، قلت: لا إذا يغبني رسول الله ﷺ، قال: فبدرهمين، قلت: لا، فلم يزل يرفع لي رسول الله ﷺ حتى بلغ الأوقية، قلت: فقد رضيت، قال: قد رضيت؟ قلت: نعم، هو لك، قال: قد أخذته، ثم قال لي: يا جابر هل تزوجت بعد؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: أثيبا أم بكرا؟ قلت: بل ثيبا، قال: أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك؟ قلت: يا رسول الله إن أبي أصيب يوم أحد وترك بنات له سبعا فنكحت امرأة جامعة تجمع رءوسهن وتقوم عليهن، قال: أصبت إن شاء الله، أما إنا لو قد جئنا صرارا²⁰ أمرنا بجزور فنحرت وأقمنا عليها يومنا ذلك، وسمعت بنا فنقضت نمارقها، قلت والله يا رسول الله ما لنا من نمارق، قال: إنها ستكون فإذا أنت قدمت فاعمل عملا كيسا، فلما جئنا صرارا أمر رسول الله ﷺ بجزور، فنحرت، فأقمنا عليها ذلك اليوم، فلما أمسى رسول الله ﷺ دخل ودخلنا، فأخبرت المرأة الحديث وما قال لي رسول الله ﷺ قالت: فدوئك فسمعا وطاعة، فلما أصبحت أخذت برأس الجمل، فأقبلت به حتى أنخته على باب رسول الله ﷺ ثم جلست في المسجد قريبا منه، وخرج رسول الله ﷺ فرأى الجمل فقال: ما هذا؟ قالوا: يا رسول الله هذا جمل جاء به جابر، قال: فأين جابر؟ فدُعِيتُ له، قال: تعال أي يا ابن أخي، خذ برأس جملك فهو لك، فدعا بلالا فقال: اذهب بجابر فأعطه أوقية، فذهبت معه فأعطاني أوقية وزادني شيئا يسيرا.

19 يواحق ناقته: أي يباريها في السير ويماشيها، ومواهة الإبل: مد أعناقها في السير.

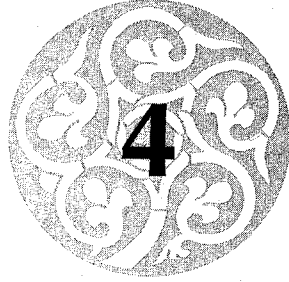
20 صرار: مكان يبعد ثلاثة أميال من المدينة.

الجدير بالملاحظة في هذه القصة أولاً أن النبي محمداً ﷺ لاحظ الشاب يتقدم بجهد كبير على الجمل المسن، وتوقف لمساعدته، واستمتع بمساومته على الجمل الذي لم يكن عنده نية في شرائه، وخلال العملية تعرف أكثر على جابر، وبصفته ابناً لأحد الأبطال الذي استشهد في أحد، فقد كان يستحق الهدية القيمة التي انتهت بها القصة.

لقد تصرف محمد ﷺ كما يليق بقائد عربي عظيم، مع دماثة أخلاق مميزة، ولمسة من الطرافة.

نقاط رئيسية

- كان محمد ﷺ يحترم جده عبد المطلب وكذلك أباه، لقد جسّد في شخصه ما يُعرف عند العرب بالمروءة، شيمة الرجال، والتي تنطوي على مجموعة من الفضائل: الكرم والشجاعة والحكمة العملية والشرف، وجميعها تقدّر عالياً في ثقافة القبائل العربية، وتلك هي الصفات التي نجدها في محمد ﷺ.
- الحكمة العملية في الأساس هي فن معرفة الشيء الصحيح الذي ينبغي فعله في الوقت الصحيح وبالشكل الصحيح. وتشتمل على القدرة على توقع المستقبل وكيف ستتطور الأمور، وكيف ستكون نتائج مسار معين للعمل.
- أن تكون قائداً لقافلة، أو تكون قائداً في أي ظرف، فإن هذا يستدعي الحكمة العملية، أن تحاكم الأمور وتتصرف بحكمة، أن تتوصل إلى استنتاجات سليمة، وأن تبني عليها قرارات حكيمة، وأن تتصرف وفقاً لها بتصميم وإرادة.
- لا أحد يولد حكيماً، وإنما يكتسب القائد الحكمة من خلال موهبة فطرية وممارسة عملية وتفكير، ومثلما تصنع القوس



قاطنو الصحراء

إذا أخبرت بدوياً عن مدخل بيتك،
فعليك أن تفتح الباب واسعاً،
لأن جملة قد يدخل معه.

مثل عربي

‘هل في الجنة من إبل؟’

سؤال طرحه رجل على النبي ﷺ²¹

في سنة 531 أرسل أحد خطباء العرب إلى بلاط الإمبراطور
الفارسي كسرى أنوشروان (خسرو الأول)، الذي عبّر عن استغرابه

21 سنن الترمذي - كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة خيل الجنة

العربية من أنواع مختلفة من الخشب، فالحكمة تتألف من ثلاثة عناصر: الذكاء والخبرة والطيبة.

- إن قائد القافلة ليس مجرد دليل موظف لإرشاد قافلة الإبل من خلال معرفته بمعالم الطريق، إن القائد بالمفهوم العام أو العالمي هو من يحقق أهدافه بنجاح، ويحافظ على مجموعته كوحدة متماسكة، ويهتم بأفرادها كأشخاص.
- تحقيق هذه الحاجات الثلاث المتداخلة يتطلب حكمة، ولكن أفضل أداء لها أن تكون بروح الخدمة: اخدم لتقود، لقد تعلم محمد ﷺ هذا الدرس العظيم، كما رأينا ذلك من خلال الخدمة المتواضعة التي أسداها للصحابي (جابر) أثناء الرحلة التي كان يقودها.

الأمير الذي على الناس راع، وهو مسئول عن رعيته

محمد ﷺ

لماذا يفضل البدو العيش في الصحراء، بدلاً من المدن ذات الأسوار التي تؤمن الحماية.

أجابه العربي فقال²²: "أيها الملك، ملكوا الأرض ولم تملكهم، وأمنوا عن التحصن بالأسوار، واعتمدوا على المرهفات الباترة، والرماح الشارعة جُنناً وحصوناً، فمن ملك قطعة من الأرض فكأنها كلها له، يرعون منها خيارها، ويقصدون أطافها.

قال الملك: فما أكثر غذاءهم؟ قال: اللحم واللبن والنبيد والتمر، قال: فما خلائقهم؟ قال: العز، والشرف، والمكارم، وقرى الضيف، وإذمام الجار، وإجارة الخائف، وأداء الحملات، وبذل المهج في المكرمات، وهم سُراة الليل وليوث الغيل، وعمار البر، وأنس القفر، ألفوا القناعة، وشَنَفُوا الضراعة، لهم الأخذ بالثار، والآثفة من العار، والحماية للذمار.

يمكننا أن نرى في هذه القصة كافة المكونات الأساسية لنمط الحياة والشخصية العربية المعاصرة، لاحظ أن العرب جميعاً يُعرفون عادة بأنهم (قاطنو الصحراء). وفي الحقيقة، إن اللغة عربية والأرض عربية، ببساطة، لأن سكان الصحراء يسمون أنفسهم (عرب) منذ زمن بعيد وعرفوا بذلك عند جيرانهم، ثم أصبح التمييز بين البدو والحضر فيما بعد أكثر وضوحاً، فالبدو أكثر التصاقاً بحياة الصحراء، حيث الرعاة المرتحلون أصبحوا يعرفون بالعربية (البدو) من (البادية) الأرض الجدد ذات الصخور والحصى والرمال، حيث عاشوا وارتحلوا مع قطعانهم من الجمال والغنم.

في الإنكليزية المعاصرة تستعمل كلمة Bedouin للدلالة على البدو في حالتي الجمع والافراد على السواء.

في الفترة الواقعة بين عصر البيزنطيين ونهاية عصر الصليبيين، كان البدو من صحراء سوريا والجزيرة العربية وعلى نطاق أوسع العرب جميعاً، كانوا يُعرفون باسم الساراسين saracens (لعلها من: الشرقيين، وفي كتاب القضاة - من العهد القديم - كان البدو يعرفون باسم أبناء الشرق)، ولكن كما أسلفت فإنهم أطلقوا على أنفسهم (العرب).



ومنذ ثلاثة آلاف عام قبل محمد ﷺ عُرف العرب بأنهم قوم الجمل وحيد السنام، على سبيل المثال، في سنة 671 قبل الميلاد سجّل سرحدون²³ في كتابة على الحجر: (جمعتُ جمال كل الملوك العرب، وحملتُ عليهم قِرب الماء). وبذلك كان بمقدوره أن ينقل جيشه عبر صحراء سوريا ليهاجم مصر، وكذلك فقد عمل حكام الفرس - قميز و أرتاحشويرش²⁴ - الشيء نفسه فيما بعد، فقد حشدوا قوافل الجمال بالآلاف.

يستطيع الجمل - إذا رعى بشكل جيد ولم يُجهد في العمل - أن يبقى بدون أن يشرب الماء لمدة عشرة أشهر، مكثفياً بالرطوبة الموجودة في طعامه، وفي الحالات الطارئة يستطيع أن يأخذ حاجته

23 سرحدون: الملك الآشوري (آشور أخي الدين) (681 - 668 ق.م)، ابن سنخاريب.

24 الملك أرتاحشويرش الثاني (358-404 ق.م) ملك الفرس

22 مروج الذهب للمسعودي

من الماء من خلال أنسجة جسمه نفسه، حتى يفقد ربع وزنه بدون أن يصيبه وهن شديد.

ويستطيع الجمل أن يقطع مسافة 25 ميلاً في اليوم وهو يحمل 500 رطل (227 كيلوغرام) وذلك لثلاثة أيام على التوالي، وإذا لم يكن محملاً يستطيع أن يجري بسرعة 10 أميال في الساعة على امتداد 18 ساعة، أو يمشي بسرعة 5 أميال في الساعة لمدة 24 ساعة، أو يستمر في المشي لعدة أيام. أما بالنسبة للراكب، فيمكنني أن أشهد، بأن ركوب الجمل لساعات عديدة، وبحركة وئيدة، يتمايل فوق سرج مقوى بالخشب، ومغطى بالجلد، ومزخرف بالقصب، يُعتبر بالنسبة للراكب، اختباراً حقيقياً لقدرته على الاحتمال.

وبعد أن يكون التعب قد أخذ منه مأخذه، وهو فوق سرجه، والشمس تميل إلى الغروب، والصحراء تفقد ألوانها، يتوق إلى رؤية منظر تلك الخيام السوداء، التي تعلن بالترحيب وكرم الضيافة، ونار تتوهج بأخشاب عطرة الرائحة، والقهوة والطعام والسرير المعد للنوم، تحت قبة السماء ذات النجوم المتلألئة.

تكره الناقة المستعملة للركوب أن تبتعد عن صغيرها أو قطيعها، وتبقى تئن بصوت مفعج لعدة أيام، وغالباً ما يستمر الصوت الخافت لشهور، يوماً بعد يوم، وغالباً في الليل أيضاً، بحيث يُسمع على فترات منتظمة، ولن يتوقف الصوت حتى يُربط فمها بحبل، ومع ذلك يبقى الصوت المكتوم مسموعاً.

إن التعبير باللغة السامية عن عاطفة الأمومة عند أنثى الجمل يظهر مرة أخرى في الكتابات المقدسة العبرية كرمز لمحبة الله للإنسان.

لم يكن الجمل - بالنسبة لمحمد ﷺ - مجرد هبة من الله للعرب، ولكنه أيضاً واحد من عجائب الخلق التي تدعونا إلى الإيمان بخالق مبدع حكيم.

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ {17} وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ {18} وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ {19} وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ {20} فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ {21} لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ {22}

(القرآن الكريم، سورة 88 الآيات 17-22)

حسناً، هل سبق لكم أن تفكرتم في الإبل كيف خلقت؟ في الحقيقة إن كل شيء في الجمل مصمم ليناسب جفاف الصحراء العربية وحرارتها القاسية. العيون مضاعفة الأهداب، مع حواف ثقيلة تحجب حبات الرمل اللاسعة أثناء العاصفة. الأذان وفتحات الأنف، بالإمكان إغلاقها بشكل محكم للغاية نفسها. الأقدام كبيرة جداً في أسفل الساق النحيفة، مفلطحة ومبطنة كي تتحرك فوق الرمال بدون أن تغوص فيها.

أما بالنسبة للأكل، فإن شفتي الجمل الغليظتين قادرتان على قضم حتى الأشواك الناتئة. كما إن شفتي الجمل مثاليان لجمع الطعام، لأنهما تمنعان اللسان من الخروج وبالتالي لا تسمحان بخسارة أي شيء من رطوبة الطعام الثمينة. وفي الحقيقة، إن الجمل يلتهم أشياء لا تُعيرها الكائنات الحية الأخرى أدنى اهتمام، مثل نباتات الصحراء الملحية، وأوراق الأشجار التي أذبلتها الشمس.

هذا الطعام ينتقل جيئةً وذهاباً عبر معدة رباعية الحجرات، تسحب الغذاء من المصادر غير المرغوبة، مع حد أدنى من الفاقد.

يتشكل نتيجة لهذه العملية الدقيقة، روثٌ جافٌ بشكل استثنائي، يستعمل كوقود جيد للاحتراق، لطهي طعام البدو.

أكثر خواص الجمل أسطورية هي حاجته للحد الأدنى من الماء.

ومع أن الجمل العربي يحتاج إلى الماء في الصيف ولكنه يستطيع الاكتفاء برطوبة النباتات في الشتاء حيث لا تزيد كمية المطر على سهول الصحراء عن بضعة إنشات قليلة.

وخلافاً لمعظم الحيوانات الأخرى، التي يصيبها التسمم إذا لم تتبول بشكل كاف، لتتخلص من الفضلات البولية، فإن الجمل يستطيع إعادة تدوير الكثير من بوله، عبر الكبد، لإنتاج البروتين، وبذلك يستمر في حفظ الغذاء والماء.

أما بول الجمل فإن له رائحة طيبة يستمدّها من النباتات العطرية، ويستعمله البدو فيغسلون به شعرهم ليحفظ لونه الأسود اللامع، كما أنه يساعد على قتل الطفيليات.

وعند ولادة طفل جديد يسارع أبوه إلى الجمل فيستحثه للنهوض والتبول عن طريق تدليك خاصرته اليمنى.

ثم تغسل الأم رضيعها به وكأنها تُعمّده بهذا الماء العشبي الرائحة من دابة الصحراء.

أما حليب النوق فهو غذاء البدو الأساسي، والوحيد في غالب الأحيان.

تعطي الناقة لصاحبها جالونا من الحليب كل يوم، وهو أغنى من حليب البقر بكثير، وتستمر الناقة في إنتاج الحليب بعد الحمل لمدة ثلاث سنوات على الأقل.

بعد أن استقر محمد ﷺ في المدينة، كان يملك قطيعا من الجمال في أطراف المدينة، وكان من ضمن هذا القطيع ناقة واحدة لكل زوجة من نسائه، وبذلك كان لديهم زاد يومي من الحليب.

وتروي أم سلمة في ذلك: (كان عيشنا مع رسول الله ﷺ لقائح بالغابة، كان قد فرّقها على نسائه، فكانت لي منها لقحة تسمى العريس، فكان لنا منها ما شئنا من اللبن، وكانت لعائشة لقحة تسمى السّمراء غزيرة، ولم تكن كلقحتي، ف قرب راعيهن اللّقاح إلى مرعى الغابة تصيب من

أثلها وطرّفائها فكانت تروح على أبياتنا، فتؤتى بها فيحلبان فيأخذ لقحة يعني رسول الله ﷺ أغزر منها بمثل لبنها أو أكثر ورغم أن هذا القطيع من الإبل يعود للرسول نبي الله ﷺ فإن هذا لم يمنعه من غارات البدو²⁵، وفي رواية أن النبي ﷺ قال²⁶ لما بلغه ما صنعوا: عطش الله من عطش آل محمد الليلة.

وقد شارك محمد ﷺ مرة واحدة على الأقل في الفريق الذي طارد أولئك البدو المغيرين لاسترداد إبله العزيزة.

جاء إليه أحدهم ذات مرة يسأله ماذا يفعل حتى لا تضيع ناقته (يا رسول الله أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟) والنتيجة أن الرجل حصل على نصيحة محددة، فقد قال له النبي ﷺ (قيدها وتوكل)²⁷.

كانت الجمال تمثل عند العرب أهم نوع من المال ووسيطا للتبادل.

كان مهر الزواج للمرأة يدفع بشكل جمال،
كانت الجمال تمثل أيضاً رمزاً للفخر والتميز.

25 كما في قصة العرنيين التي في الصحيحين من حديث أنس أن رهطاً من عكل وعرينة أتوا رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله إنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف فاستوخمنا المدينة فأمر لهم رسول الله ﷺ بدود وأمرهم أن يخرجوا فيها فيشربوا من ألبانها وأبوالها فلما صحوا قتلوا راعي رسول الله ﷺ واستاقوا الدود.

26 قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: أخرجه ابن وهب من مرسل سعيد بن المسيب.

27 رواه الحاكم وجود إسناده الذهبي وحسنه الألباني، وفي رواية: أعقلها وتوكل. رواه ابن حبان والترمذي وحسنه الألباني

حتى إن المحارب ربما يذكر أسماء جِماله وهو يندب أباه أو
أبيه أو أخته.

وفي الحروب والغارات المستمرة بين القبائل، كانت إبل العدو
تمثل الهدف الأساسي.

لم يكن هناك ما يعادل ركوب الناقة في نظر البدوي الخبير.
كان هناك في اللغة العربية ما يزيد على 300 اسم لألوان وأشكال
وأحجام الجمال المختلفة.

فمثلاً تطلق تسمية خاصة على الجمل الذي علقت في حافره
شوكة أو حجر حاد. وتسمية خاصة على الناقة التي ترعى فقط قرب
مهجع راكبها ولا تبتعد بحيث لا يراها.

وليست مصادفة أن تكون كلمة جمل وجميل من أصل واحد.
ولما كان عمر جمل الركوب بحدود 40 سنة فإن روابط الصداقة
المتبادلة يمكن أن تنشأ بين الجمل وصاحبه.

لقد صور الرحالة الألماني كارل شوان - عرف برضوان
الرويلي - العاطفة التي يمكن أن يشعر بها البدوي نحو جمل معين،
صورها بشكل جيد في مشهد مسافر ألماني في الحرب العالمية
الأولى، كان يعيش مع القبيلة البدوية الكبيرة رولة العنزية، في
الصحراء السورية في عشرينات القرن 20.

أصيب أحد رجال قبيلة بني صخر، في إحدى الغارات، وكان
مع رضوان مجموعة أدوات طبية، ولكن لم يكن بوسعه فعل شيء
أكثر من محاولة تسكين آلام الرجل.

حملة بعض الأصدقاء إلى خيمة ابن جنيب ومددوه هناك، ثم
جاء عبد يقود راحلة فائقة الجمال.

كان مؤثراً أن الجمل الذكي شعر بقرب موت سيده، فداعبه
مراراً ودار حوله بعينين قلقتين واسعتين، ولامس الرجال الغرباء
بشفتيه المشقوقتين وأنفه الناعم. وكان الرجل المحتضر يتحدث
مع ابن جنيب، شيخ قبيلته، ثم أغمي عليه نتيجة نزيف حاد، وعندما

عاد إلى وعيه همس ببضع كلمات إلى أحد العبيد وقبل أن أدرك ماذا
يحصل، لوى العبد رأس الجمل إلى الخلف وذبحه بطعنة سريعة من
خنجره في وريده الودجي.

وفي الحال سلخ العبيد الآخرون الجمل وفرشوا جلده أمام
الخيمة، فجعلوا الوجه الدامي منه نحو الأعلى، والوجه الآخر -
الوبري - على الأرض، ثم خلعوا ملابس الرجل الجريح ومددوه
على الجلد، كانت أمنيته الأخيرة أن يُدفن في جلد ذلوله (جمله)
العزیز، وقد أسعده تنفيذ أمنيته وهو على فراش الموت.

لم أكن الوحيد الذي تأسف لموت ذلك الحيوان الرائع بدون
جدوى.

وعندما لفظ الرجل أنفاسه الأخيرة في المساء، قام أربعة أو
خمسة من أصدقائه، فلمسوا - الواحد تلو الآخر - جبهته بأطراف
أصابعهم.

ركع ابن جنيب قرب الرجل الميت، وضع يده على إبطه الأيسر
لبرهة وجيزة، ثم قال: في الحقيقة إنه بارد. نهض متعجلاً ولف الكفن
المبلل بالدم فوق الجثة، وأمر عبيده أن يحفروا له قبراً في الرمال.
تم دفنه بدون أية طقوس أو مظاهر للحزن، وترك للأرض
تحفظه²⁸.

كان ممكناً أن تحصل هذه القصة في زمن محمد ﷺ.



28 القصة من كتاب 'الخيام السوداء في جزيرة العرب' للرحالة الألماني كارل رشوان
Black Tents of Arabia

عندما غادر محمد ﷺ مكة عام 622 قاصداً المدينة على مسافة 350 كيلومتر شمالاً، اشترى جملاً يدعى القصواء من أبي بكر، البعير التي ستبقى عزيزة على قلبه حتى موته.

وكان عنده ناقة أخرى للركوب تدعى العضباء، وكانت لا تُسبق، أو لا تكادُ تسبق، فجاء أعرابي على قعود له، فسبقها، فشق ذلك على المسلمين، حتى عرفه النبي ﷺ، فقال: 'حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه'.

عندما أصبح هارون الرشيد خليفة في بغداد (786-809) استضاف الشاعر الأصمعي، فسأله الرشيد -كما يروي المؤرخ المبرزباني- إذا كان يعرف شعر (عدي ابن الرقاع) الذي يقول فيه: عرف الديار توهماً فاعتادها، فقال الأصمعي: نعم! قال: هاتها! فمضى فيها حتى إذا وصل إلى صفته لجمله، قال له الفضل بن يحيى البرمكي (من رجال حاشية الرشيد، وهو فارسي): ناشدتك الله لا تقطع علينا ما أمتنا به السهر في ليلتنا هذه بصفة جميل أجرب! فقال له الرشيد: أسكت! فالإبل هي التي أخرجتك عن دارك، وغزتك في قرارك، فاستلبت تاج ملكك²⁹.



29 تمة القصة (ثم ماتت، وعملت جلودها سياطاً ضربت بها أنت وقومك! فقال الفضل: لقد عوقبت على غير ذنب والحمد لله، فقال له الرشيد: أخطأت! الحمد على النعم، لو قلت: وأستعين الله، لكنت مصيباً). انظر: (نور القبس) للمبرزباني، محمد بن عمران بن موسى، أبو عبد الله المبرزباني، (ت 384 هـ 994 م.) وهو مؤرخ وأديب، أصله من خراسان، مولده ووفاته ببغداد.

الغزوة عبارة عن غارة عدائية مفاجئة، على أراضي قبيلة أخرى، بهدف الاستيلاء على جمالهم. كانت جزءاً من مكونات نمط الحياة العربي.

عندما يعزم القائد على غزوة ما، فإن بمقدور كل رجل أن يتطوع بالمشاركة فيها.

كان لكل شخص من البدويين مطلق الحرية في الذهاب أو البقاء. كل واحد يحضر معه جملة وسلاحه ومزودة الماء من جلد الماعز، وحقائب المؤن المقترنة بالسرج.

ومع وجود قائد معجرب وموثوق، فلا يكون هناك عادة نقص في المتطوعين، فتلك الإغارة كانت جزءاً من حياتهم.

القائد الجيد هو الشجاع والكفء والمعروف بحسن حظه. وفي حالات القتال، سواء كانت غزوة قصيرة وحاسمة على قطعان القبيلة الأخرى، أو مضاربها (إذا لم تكن هناك أدنى صلة قرابة بين الطرفين المتحاربين)، فالعادة أن يكون القائد في المقدمة. كان المغيرون يصلون إلى موقع الهجوم ممتطين النياق، وأحياناً كان كل رجلين يركبان ناقة.

وإذا كان عندهم خيول ولم تكن المسافات بعيدة، فكانوا يجعلون الخيول تمشي خلف الجمال إلى حين استخدامها للمعركة.

كانت معرفة محمد ﷺ بأساليب البدو مفيدة جداً له كقائد في حرب الصحراء بين المسلمين وقريش.

فعندما كانت قريش تتجه جنوباً بعد انتصارها في معركة أحد، كان المسلمون المنهكون فوق التلة يراقبون بقلق ليروا هل سينحرف القرشيون ليهاجموا المدينة أم سيتابعون سيرهم نحو مكة بالغنائم التي معهم.

أرسل محمد ﷺ علي بن أبي طالب فقال: اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتنطوا للإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم

يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأنجزنهم، قال علي: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنّبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة. وهكذا عندما أخبر بأنهم يركبون الجمال استنتج مصيباً أنهم كانوا قاصدين مكة.

ترك لنا الشعراء العرب تصويراً متوهجاً للغارات الناجحة، ولكن في الواقع قد تختلف الأمور جداً.

فمثلاً في سنة 1921 جذبت شهرة عودة أبو تايه الحويطي كقائد لمجموعات الإغارة، مائة وعشرين رجلاً ينحدرون من عدة قبائل للتجمع في ملتقى شرقي المعار (فيما يعرف الآن بالأردن).

كان هدف عودة هو الإغارة على قطعان الجمال لبعض القبائل العراقية، التي كانت تخيم في الضفة الغربية للفرات، شمال غرب بغداد على مسافة 600 كيلومتر من نقطة الانطلاق.

بدأت الأمور تتأزم عندما اقتربت الغارة من هدفها، فقد كان يراقبهم من بعيد أحد الكشافات وتمكن من الفرار منهم.

حالما ارتفعت إشارة الإنذار، وضاعت فرصة المباغطة، وتضاءلت حظوظ المغيرين في النجاح.

تم سحب القطعان من المراعي بسرعة إلى معسكرات أصحابها، بينما احتشد مقاتلو القبيلة لصد الغزاة.

وبالتالي قطع المهاجمون الأمل من تلك المغامرة وقرروا العودة إلى ديارهم، ولكنهم واجهوا مشكلة نقص في الماء حيث أن الآبار التي كانوا قد خططوا لاستعمالها كانت عليها حراسة، فاضطروا للسير ثلاثة أيام زيادة نحو الغرب طلباً للماء، وكان ذلك مخاطرة حقيقية لأنهم إذا لم يجدوا الماء في المكان الذي قصدوه، فلن يكون أمامهم مصدر للماء لمسافة 200 كيلومتر أخرى.

وعندما وصلوا المكان تحققت أسوأ مخاوفهم فقد كان الجبّ جافاً، وتراءت أمامهم الكارثة المحدقة.

وبدأت تظهر في المجموعة علامات عدم الانضباط، والبدو أصلاً انضباطهم ليس بالقوي.

‘كنت أظنك قائداً لامعاً’، قال أحد صغار الشيوخ مخاطباً عودة بوقاحة... ‘إنك لم تبل بلاء جيداً هذه المرة’، أضاف قائلاً. تتم آخر: ‘ولاً ضاعت الغنائم، والآن يبدو أننا سنموت من العطش.’

أصبح وجه عودة الرهيب شاحباً من الغضب، ومد يده إلى سلاحه الذي كان قريباً منه،

‘لعلك لا تعيش طويلاً حتى تموت من الظمأ، أيها البغيض.’

ولما كان يروى عنه أنه قتل ثلاثمائة رجل في المعارك، من غير احتساب الأتراك - كما قال ذات مرة، فقد كان عودة قادراً على تنفيذ وعيده.

صاح ابنه محمد: ‘بالله عليكم لا تبدأ معركة هنا’ وأمسك بمعصم والده.

‘بإمكاننا خوضها معهم عندما نعود إلى ديارنا، إن عاد أحد منا.’ ‘حسناً، أنا أتخلى عن القيادة.’

أعلن عودة، وقد بذل جهداً ليكظم غيظه.

‘بإستطاعتكم أن تذهبوا كما تريدون، واللعة معكم.’

فقط 25 رجلاً من قبيلة الحويطات تبعوا عودة في رحلة يائسة نحو الغرب بحثاً عن الماء.

وسرعوا السير بدون رحمة، مشوا طوال الليل حتى لا يفقدوا الماء من أجسامهم بالمشي في حر النهار، وفي منتصف النهار أخذوا استراحة خاطفة.

تم تقليل الشرب إلى مقدار كأس واحد في اليوم أو ربما أقل، كما لم يكن إعداد الطعام ممكناً بدون ماء.

وتم التخلص من كل وزن زائد كالذخائر والأدوات الشخصية، ولكن مع ذلك بدأت الجمال تضعف.

وحالما وقع جمل، تم قتله واستخراج معدته لعصرها

واستخلاص الماء المحفوظ فيها.

بعض الرجال دفعهم اليأس إلى شرب دماء الجمل، وهذا الأمر له نتائج فادحة، فالشارب يصاب في النهاية بحمى وهذيان.

وعندما يقتل أحد الجمال فإن راكبه ينتقل ليركب مع رجل آخر، وعندما لا يبقى مكان للركوب فإن من يموت جملة يتم التخلي عنه ويترك لموت محتوم تحت الشمس الساطعة في صحراء ممتدة خالية من الماء.

وأثناء سيرهم أقدم واحد أو اثنان على الانتحار منهياً تعاسته، سمعوا صوت الطلقة النارية وهم يتابعون سيرهم، بلا كلمة وداع أو نظرة إلى الوراء.

بعد أن أنهى محمد حصته من الماء تابع سيره لمدة أربع وعشرين ساعة بدون شرب، ثم غلبه الإنهاك وأخبر أباه أنه لا يستطيع أن يكمل، التفت عودة إلى ابنه بعينين منهكتين وتمتم بشفتين متشققتين: تماسك حتى يحل الظلام.

(الله رحيم) لم يكن عنده سوى هذا التعليق.

بشكل ما، وجد محمد بقية من قوة وكافح حتى حل الليل، ثم أخذه والده جانباً وأخرج عبوة ماء عسكرية كان يخفيها في طيات سرجه.

أخذ كل منها ملء فمه من الماء، ثم أعيدت العبوة الثمينة إلى مخبئها حتى الليلة التالية.

كانت الغزوة الكابوس قد انتهت عند بئر ماء في الحدود الشمالية لوادي سرحان.

كان عدد الناجين عشرة رجال، وجوهمهم كالحة وعيونهم محدقة، تساقطوا عن ظهور جمالهم وشربوا من ماء الحياة.

كانت الخيول قليلة في الجزيرة العربية، ولكنها موضع تقدير واعتزاز لفائدتها في الركوب، وفي الحرب بشكل عام.

الحصان العربي أصغر وأنحف وممشوق القوام أكثر من نظيره الغربي، وله طريقة فريدة في العدو، وكأنه يحوم فوق الأرض. يقول المثل العربي³⁰: إن الله خلق الإنسان من الأرض، ولكنه خلق الخيل من ريح الجنوب.

الجزيرة العربية لا يوجد فيها أنهار ولا مروج والخيول لا تستطيع أن تعيش على الشوك مثل الجمال، انها تحتاج للماء والغذاء المناسب.

وبفضل ذاكرتهم الاستثنائية للأنساب، إضافة إلى العناية التي وفروها لخيولهم، فقد غدا أولئك البدو أعظم منتجين لسلالات الخيول في عصرهم.

ثلاثة فحول فقط من الأحصنة العربية تم استيرادها من الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر، هم أسلاف الأحصنة الأصلية في العالم المعاصر.

يعتبر العرب أن امتلاك حصان عربي هو من أعظم نعم الله على الرجل، في الحياة الدنيا أو في الآخرة.

وبحسب المؤرخ العربي ابن هشام (توفي 827م). فإن إسماعيل عليه السلام ابن إبراهيم عليه السلام كان أول من ركب الخيل، وأول من تكلم العربية، وأول من رمى بالسهم.

كلما زاد عدد الخيول التي تملكها القبيلة زاد خوف جيرانها منها، وروي عن النبي ﷺ أنه قال (ان الخيل معقود بنواصيها النصر)، و(من كان له فرس عربي فأكرمه، أكرمه الله، وإن أهانه أهانه الله)

30 في تفسير ابن كثير 2/564 "... وذكر وهب بن منبه في إسرائيلياته أن الله خلق الخيل من ريح الجنوب.

و (من احتبس فرسا في سبيل الله إيماناً بالله، وتصديقا بوعده، فان شبعه، وريته، وروثه، وبوله، في ميزانه يوم القيامة) وأن الفرس بعد المرأة تجلب للرجل السعادة³¹.

امتلك محمد ﷺ خلال حياته 15 فرسا، اشتراها من أسواق نجد، كانت تستعمل لتلقيح الأفراس في جيشه، في معركة بدر كان مع المسلمين حصانان فقط، كما يروى أنه أقام سباقات لتحسين الخيل والفرسان معا.

أول خيوله تم شراؤه من قبيلة فزارة البدوية، كان اسمها السكب. في معارك الإسلام الأولى كانت هذه الفرس في طليعة الأحصنة، كانت سوداء اللون مع بقعة بيضاء على جبهتها، وكذلك يوجد بياض على قوائمها الأربعة (أغر محجل). كان البدو لا يستعملون السرج إلا قليلاً.



في هذا الفصل أخذنا لمحة عن اثنين من شيوخ القبائل البدوية: ابن جنيب شيخ قبيلة الرولة، وأبو تايه شيخ قبيلة الحويطات. عندما كنت جندياً في الفيلق العربي حظيت بالتعرف على شيخ ثالث: مثقال الفايز، الذي غدا شيخ مشايخ بني صخر سنة 1922.

31 المعنى مأخوذ من رواية: "ثَلَاثٌ مِنَ السَّعَادَةِ، وَثَلَاثٌ مِنَ الشَّقَاوَةِ، فَمَنْ السَّعَادَةُ: الْمَرْأَةُ تَرَاهَا تُعْجِبُكَ، وَتَغِيبُ فِتَامُهَا عَلَى نَفْسِهَا وَمَالِكٍ، وَالذَّائِةُ تَكُونُ وَطِئَةً، تُلْحِقُكَ بِأَصْحَابِكَ، وَالذَّارُ تَكُونُ وَاسِعَةً كَثِيرَةَ الْمَرَافِقِ. وَمَنْ الشَّقَاوَةُ: الْمَرْأَةُ تَرَاهَا فَتَشْوُوكَ، وَتَحْمِلُ لِسَانَهَا عَلَيْكَ، وَإِنْ غِيبَتْ عَنْهَا لَمْ تَأْمَنْهَا عَلَى نَفْسِهَا وَمَالِكٍ، وَالذَّائِةُ تَكُونُ قَطُوقًا، فَإِنْ ضَرَبَتْهَا أَعْيَبَكَ، وَإِنْ تَزَكَّيْهَا لَمْ تُلْحِقْكَ بِأَصْحَابِكَ، وَالدَّارُ تَكُونُ ضَيْقَةً قَلِيلَةَ الْمَرَافِقِ. أخرجها الحاكم

لا يوجد للشيخ عند البدو وكلاء مأجورون يعتمد عليهم لتنفيذ أوامره، إنه لا يزيد على أن يكون الأول بين نظراء مكافئين ضمن مجتمع كل رجل فيه مستقل بشدة وسريع الامتعاض من أدنى إشارة لسلطة فردية مطلقة.

إن سلطة الشيخ تعتمد بالتالي على قوة شخصيته ومهارته في التعامل مع الرجال.

ولفريد ثيسجر: الرمال العربية - 1959

الآن ستكونون قد بدأت في تكوين فكرة في أذهانكم عما تتوقعه القبيلة البدوية من قائدها أو شيخها.

دوره ببساطة أن يكون قائداً، أن يحمل مسئولية اتخاذ القرارات ولكنه يتخذها بعد المشاورات، ويحافظ على القبيلة متماسكة مثلما يفعل راعي الغنم، ويهتم بأمور أفرادها.

هل تذكرون كيف اهتم ابن جنيب بالرجل المحتضر في خيمته وحقق له رغبته الأخيرة؟

كانت القيادة في القبيلة اختيارية ووراثية في آن معا. كل قبيلة لها عائلة حاكمة، إخوة وأبناء عمومة يتم اختيار الرئيس من بينهم بشكل طبيعي.

بينما لا توجد انتخابات رسمية، فإن رجال القبيلة سيعطون ولاءهم لعضو العائلة الحاكمة الذي طبع في أذهانهم القناعة بأنه القائد الممكن.

إضافة إلى صفات المروءة والشجاعة والكرم والأمانة والإنصاف والشرف أو السمعة الحسنة، فإن رئيس القبيلة يحتاج إلى أن يكون مفاضاً ماهراً كي يستطيع أن يحل المشاكل بين أتباعه قبل أن تخرج عن السيطرة، وأن يتعامل مع الحلفاء.

يحتاج الرؤساء أيضاً إلى الحنكة والذكاء وحسن التقدير حتى يعلم أين هطلت الأمطار في الصحراء مؤخراً وبالتالي أين توجد المراعي

عبوره الربع الخالي في السعودية في كتاب (رمال عربية)، 1959. ولنقتبس مما كتبه من أجل أن نقدر خصال أولئك الذين قابلهم، فهذا يضيف رمزية على مقابلاته:

بعد يومين جاء رجل مسن إلى مخيمنا، كان يعرج في مشيته ويبدو فقيراً حتى بقياس البدو، يرتدي إزاراً ممزقاً، نحيف وطاعن في السن، يحمل بندقية قديمة، في حزامه علب خرطوش، اثنتان مليتان وستة فارغة، وخنجر مع غمد متآكل. حياه رشيد قائلاً: 'مرحبا بخيت طال عمرك يا عم، مرحبا وأهلا، مائة أهلا.' تعجبت من حرارة تحياتهم، ظننته شحاذاً حقيقياً، تمنيت أن يطلب شيئاً. في المساء طلب وأعطيته خمسة ريالاً، ولكني بعد ذلك غيرت رأيي. أخبرني ابن كيينة عنه: 'كان يوماً أحد أغنياء القبيلة والآن لا يملك إلا بضعة عزرات.' سألته ماذا حصل لإبله؟ هل أخذها اللصوص، أم ماتوا بسبب المرض؟ أجابني ابن كيينة: 'لا بل إن كرمه هو الذي أفلسه، كلما جاءه ضيف كان يذبح له جمللاً، أقسم بالله إنه سخي كريم.' شعرت في نبرة صوته بأنه يحسده.

البدويون بطبيعتهم يقدرّون ويحترمون كثيراً رؤساءهم وكبار السن من قبيلتهم. إنهم ليسوا متغطرسين أو متكلفين، ولكن ليس عندهم طبقة أو تسلسل هرمي، ومن ثم جاءت عاداتهم بمخاطبة كل الناس باسمهم الأول بغض النظر عن المنصب أو المستوى، ويكلمونهم مباشرة وببساطة كأنهم يكلمون جيرانهم وهم جالسون حول الموقد ومصببات القهوة فوق الحجارة المتوهجة.

لقد عرفت جنوداً من قبائل بدوية مختلفة (الشمر والرولة وبني صخر والحويطات) ووجدت عندهم جميعاً ذلك المزيج المميز من الاحترام الودي وبساطة الألفة، وهذا ما قلت عنه: السحر الخاص للمجتمع البدوي.

إنهم أكثر من عرفتهم من الناس ذكاء بشكل رائع واستثنائي. لكنهم متهورون يلزمهم كثير من التنظيم، وإنهم أعمق مما يمكنكم تصوره.. أما من حيث البلاغة وجمال الأفكار، فإنهم بلا شك فوق أي شعب في العالم.

ليدي هستر ستانهوب³³

نقاط رئيسية

- كل الجنس البشري مر - أو يمر الآن - في مرحلة يكون النمط المهيمن فيها على المجتمع هو القبيلة. هذه الحقيقة جعلتنا بشكل فطري نميل إلى صفات معينة في قادتنا، فنحن نتوقع منهم أن يكونوا على درجة من الكفاءة والخيرية، حتى يعطوا دورهم القيادي حقه.
- في الظروف القاسية للجزيرة العربية كان مهماً بالنسبة للقادة والأتباع أن يعيشوا ويعملوا معاً جنباً إلى جنب. لذلك فإن القيادة لم تكن كهنتية أبداً. كان القائد بين الناس وليس فوقهم.
- القادة في الماضي كانوا يستمدون سلطتهم ومنصبهم من موافقة الناس، إن لم يكن بالانتخاب برفع اليد أو الاقتراع السري كما هي العادة في الديموقراطيات الحديثة، فقد كان يجري اختيارهم من بين مجموعة من المرشحين المؤهلين.

33 ليدي هستر ستانهوب 1786-1839، رحالة إنكليزية عاشت مع البدو قرب تدمر سنة



محمد الأمين

إذا فقدت الثقة بين الناس، فإن العلاقات الاجتماعية سوف تتلاشى.
المؤرخ الروماني ليفي

لا نعرف الكثير عن محمد ﷺ في فترة حياته الأولى في مكة، إلا أنه اشتغل في التجارة، وقاد قوافل تجارية، واشتهر في قومه بالأمانة، حتى صار لقب (الأمين) كأنه اسم جديد له، وفي اللغة الإنكليزية تستعمل كلمة شبيهة بها وهي (أمين) في نهاية الصلاة للتعبير عن الموافقة القلبية، فكان الكلمتين ترجعان إلى أصل مشترك.
يمكننا أن نتوقع ماذا كانت أخلاق وأعمال محمد ﷺ حتى اكتسب هذا اللقب الرائع، وحتى نأخذ فكرة عن ذلك فلنذكر أنه في سنة 622 عندما كان محمد ﷺ يستعد للهجرة من مكة، ورغم الخطر الذي كان يهدد حياته، فقد حرص على رد الأمانات التي كانت في بيته إلى أصحابها.

- كانت القبائل بحاجة إلى رئيس واحد يكون معروفاً بأنه الرجل المسؤول، إن مبدأ (وحدة القيادة) هو مبدأ عالمي، ويعبر عنه بوضوح المثل العربي: السفينة بقبطانين اثنين تغرق.
- لا يمكن أن تختار القبيلة رجلاً للقيادة يكون معروفاً بفساد الأخلاق.
- لم يكن وارداً عند الناس قديماً أنه لا داعي لوجود قادة، يقول مثل فيتنامي قديم: أن تكونوا بلا قادة، أن لا تطيعوا أحداً، هذا لا يستحق أن يكون إنساناً. وكان محمد ﷺ يشدد على ضرورة وجود قائد محدد، ولكنه لم يعين خليفة له، ربما لأنه كان يثق في حسن اختيار أصحابه.

ضيوفنا الكرام، مع أنكم جئتم وشرفتمونا وشرفتم ديارنا، ففي الحقيقة نحن الضيوف وأنتم سادة هذه الخيمة.

الملك عبد العزيز آل سعود

ملك المملكة العربية السعودية

وعلى مدى قرون، كانت الحياة في مكة تعتمد على القوافل التجارية، كل الناس في مكة، الغني والفقير على السواء، حتى النساء اللواتي كان بعضهن يمتلكن أراضي، كانوا جميعاً تواقين لامتلاك حصة في تلك التجارة الربحية.

كانت الأسر القوية تزدد غنى في كل عام، مع كل رحلة تجارية، وكانت العائلات الفقيرة توفر كل دينار ممكن، لتساهم في تلك المضاربات التجارية.

وكان تجار مكة يشكّلون ما يُشبه النقابة لأنفسهم، ويجمعون رؤوس أموالهم لتجهيز القافلة، ثم يشتركون في عوائد مشروعهم التجاري.

وعادة ما كان الأشخاص المنفردون، يديرون بأنفسهم أعمال المحاسبة المالية في تلك المناسبات، فيستلمون بأنفسهم المساهمات، من مختلف المهتمين في حملة بعينها، ثم يتولون إدارة تلك الودائع المالية تجارياً بحسب إمكانياتهم.

ومن المرجح أن استقامة محمد ﷺ وأمانته الدقيقة في ذلك الدور، هي التي أكسبته تلك السمعة الحسنة وجعلته موضعاً للثقة.

كانت في مكة أرملة شابة، تدعى خديجة بنت خويلد، تستثمر أموالها في القوافل التجارية، وقد ائتمنت محمداً ﷺ على تلك الأموال أكثر من مرة، وكان محمد ﷺ قريباً لها.

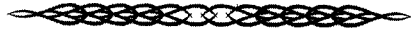
وقد تأثرت كثيراً بأدائه العملي، كما مالت إليه شخصياً، واتباعاً لعادة كانت سائدة بين العرب - كان يوجد تكافؤ بين الجنسين أكثر من المجتمعات الأخرى - فقد أرسلت له عرضاً بالزواج تقول فيه: يا ابن عمّ، إني قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك في قومك، وأمانتك وحسن خلقك، وصدق حديثك.

قبل محمد ﷺ عرض الزواج، وكان ذلك أحد القرارات الحكيمة التي اتخذها، وظلت خديجة زوجته الوحيدة حتى ماتت في 618 م. وأنجبت له ابنته فاطمة وغيرها، وأولاداً لم يعيش أي منهم، وكانت

أول شخص يؤمن بنبوّة محمد ﷺ.

كان في زمن محمد ﷺ مثل مأثور يقول (لا نبي في وطنه)، ومحمد ﷺ سوف يتحقق من صحة هذا القول، حيث سيعاني سنوات من الرفض والعداء، من أغلب أهل بلده.

رغم كل تلك المحن، بقيت خديجة السند الرئيسي لمحمد ﷺ، فقد عرفت زوجها وآمنت به، على نحو لا يقدر عليه إلا امرأة محبة. لعل هذه الكلمات من الكونت ألكسيس دي توكفيل³⁴، عن زوجته، تعبر بشكل صحيح، عما كان محمد ﷺ يشعر به نحو زوجته: لقد كانت لي مصدر سكنٍ ورفقٍ وقوةٍ، في مواجهة الشدائد، التي كانت تعكرني، ولكنها كانت تبقى محافظة على صفاءها³⁵.



من الواضح أن محمداً ﷺ كان رجلاً مشهوراً بأمانته، وأصل هذه الكلمة (الأمانة)، في اللغة اللاتينية: *integer*، وتعني "كامل"، تناسب لمحمد ﷺ بشكل خاص، كما أنها توافق ما يعنيه المسلمون، فمعناها الأولي هو: الكمال، ويفيد تكامل أجزائها وتمام وإتقان الكل. يردّد بعض المسلمين: (محمد ياقوته والناس من حجر) الصدق يعني رفض الكذب والسرقة والغش بكافة أشكاله، أما الأمانة فهي أوسع من ذلك، إذ إنها تدل على كون الشخص جديراً بالثقة، وعدم قابليته للفساد، إلى درجة يكون فيها قابل لخيانة الثقة أو المسؤولية أو العهد.

34 الكونت ألكسيس دي توكفيل (1805-1859) مؤرخ وسياسي فرنسي.

35 De Tocqueville's 'Memoir and Remains', vol. i. p. 408

إن القائد المتصف بالأمانة، يشبه ما جاء في شعر وليام وردزورث³⁶ (المحارب السعيد):

إن الذي يدرك ثقته، ويحافظ على أمانته، مع إخلاص الغاية، ولذلك فإنه لا يتوقف، ولا يكذب في سبيل الثروة أو الجاه، أو الحالة الدنيوية.

هذه الأمانة تمتد إلى سائر نواحي الشخصية، وتظهر في صغائر الأمور كما في أكثرها أهمية، لأن الإخلاص للحقيقة يُعرف من خلال دقائق الأشياء، كما يُعرف من خلال الأمور العظيمة.

لاحظوا أهمية الصدق، حيث يُستشهد به على الحقيقة في كل شيء، في مفهوم الأمانة.

لقد ذكرت خديجةً صدق محمد ﷺ، أنه اعتاد على قول الحق، إضافة إلى كونه جديراً بالثقة، ولكن في الحقيقة، هاتين الفضيلتان متلازمتان، فإذا كنت تقول الحقيقة، فسوف يثق بك الناس، وإذا كنت تكذب والآخرين يكشفون ذلك، فإن الثقة ستصبح محدودة، إذا لم تتلاش إلى الأبد.



لماذا الصدق، والإخلاص، والمبادئ الراقية، أمور مهمة في القائد؟ السبب بسيط: إن القادة الصادقين، الذين يقولون الحقيقة دائماً، يبنون ثقة الناس بهم، والثقة أمر أساسي في كل العلاقات الإنسانية، المهنية والشخصية.

يمكنكم أن تدركوا لماذا ركّز محمد ﷺ على الأمانة، في أولئك الذين يتم اختيارهم كقادة للأمة، أي المجتمع الإسلامي المتوسع، لم يكن هناك مكان لأي شكل من الرشوة أو الفساد، لم يكن منع ذلك أمراً سهلاً، لأن الإنسان (لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) [القرآن الكريم، من الآية 8 السورة 100]

اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدّوا إذا اتّمتتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم وكفّوا أيديكم³⁷.

محمد ﷺ

لعله من بين خلفاء محمد ﷺ كان الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، أفضل مثال على الأمانة، على الرغم من أنه كان يفتقر إلى بعض صفات محمد ﷺ كالرفق والمداراة، إلا أنه كان يشبهه في الأمانة والورع الشديد في الأمور المالية، والحرص على العدالة الكاملة، والتمسك بالنموذج البسيط للقائد البدوي الذي يفتح بابه للناس. يصف النعماني، الكاتب الموثوق لسيرة عمر، أمانته التي لا تليّن:

ينبغي أن نلاحظ هنا أن كل جهود الخليفة، لم تكن ذات جدوى لولا أنه كان يمارس القيادة بالقدوة، وكان يعلن باستمرار أنه يقف أمام القانون على قدم المساواة مع أي شخص آخر، إنه لم يعط نفسه أية امتيازات خاصة أو استثناءات كخليفة، بل بالعكس، إنه أعلن أن صلاحياته محدودة وأن ممارسته لها تخضع للتدقيق والنقد.

37 رواه أحمد والطبراني والحاكم عن عبادة بن الصامت

36 وليام وردزورث، (1770 - 1850) William Wordsworth شاعر انجليزي رومانسي

وفيما يخص الأموال العامة، قال عمر: (وإنما أنا ومالك كولي اليتيم، إن استغثت استعفت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف، ولكم عليّ أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها: لكم عليّ لا أجتبي شيئاً من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، ولكم عليّ إذا وقع في يدي أن لا يخرج مني إلا في حقه، ولكم عليّ أن أزيد في أعطياتكم وأرزاقكم، وأسد ثغوركهم، ولكم عليّ أن لا ألقىكم في المهالك)



وهنا نذهب في التفكير إلى نقطة أبعد، خصوصاً للقارئ المسلم. كانت رسالة محمد ﷺ ببساطة التوحيد: 'قل هو الله أحد، الله الصمد، الله له صفات وأسماء، يحفظ المسلمون تسعة وتسعين منها تصف هذا الكمال، مستمدة من القرآن والسنة، تسمى الأسماء الحسنى، وهي تصف مجموعة من الصفات، توازن بين صفات القوة والعظمة والعلم، وبين الرحمة والمحبة، الودود، الرحمن، الغفور، يحفظ المسلمون تلك الأسماء ويرددونها في دعائهم.

أحد أسماء الله أخفي، وهو الاسم الأعظم، كل هذا التنوع الذي لا يُسَبَّرُ غُورُهُ، يُعَبَّرُ عنه بعبارة رئيسية: الله أحد، وأن يكون المرء كاملاً ومستقيماً في هذا السياق، يُعتبر جزءاً متمماً للتوحيد في حياة المرء وسلوكه، فإذا كان الإنسان خلق على صورة الرحمن، فإن أمانته الشخصية انعكاس لوحداية الله.

نقاط رئيسية

- إن أنقى اللائى في العالم تأتي من الخليج العربي.
كانت اللائى تصنف عادة إلى خمس أصناف، أحسنها جودة

تدعى الجيوان، ومن بين الصفات القيادية الكبرى والصغرى تأتي الأمانة بمثابة الجيوان.

- الأمانة تدل على صحة الرأي، بحيث أن الشخص غير قابل للفساد، وغير مؤهل لخيانة الثقة، أو المسؤولية، أو المعايير الشخصية، كما في المثل اللاتيني: الأمانة أعظم الممتلكات.
- لا يمكن أن توجد ثقة من دون حقيقة، إذا أردت أن تخسر ثقة فريقك، جرب أحد السلوكيات التالية: خيانة الأمانة، النفاق، الخداع، الكذب، الرياء، التلاعب.
- الثقة تشبه الروح، عندما تذهب، تكون قد ذهبت إلى الأبد. كاتولوس³⁸.

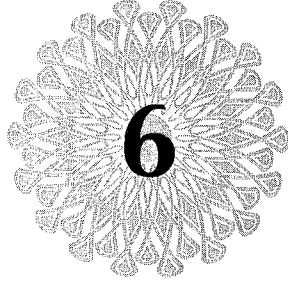
- إن الذين يتقلدون مهام قيادية، وهم يفتقرون إلى الاستقامة والأمانة، هم الذين ندعوهم: الرعاة العميان، إنهم ليسوا قادة سيئين، لأنهم ليسوا قادة على الإطلاق، إنهم (مخدعون).
وا أسفا على أولئك الذين يتلون بهم، كما في المثل العبري: عندما يريد الله أن يعاقب الغنم، يرسل لهم راعياً أعمى.

ينظر الناس إلى القادة كرجال أو نساء مكرسين للخدمة، ومقصودهم من الخدمة أنهم يخدمون أتباعهم... القائد الحقيقي هو الذي يخدم الحقيقة لا الناس.

وليم بتلر بيتس³⁹

38 شاعر روماني عاش خلال الفترة (84 ق.م - 54 ق.م).

39 W B Yeats شاعر وكاتب مسرحي إيرلندي (1865-1939)، من رسائله إلى ابنه.



المشاركة في المشقة

عندما يكون عمله قد أنجز، وهدفه قد تحقق،
سيقولون: نحن عملنا هذا بأنفسنا.

لاوتزو، فيلسوف صيني من القرن السادس قبل الميلاد

إنه مبدأ أساسي وعالمي للقيادة، أن القادة الجيدين يشاركون في
الأخطار والمشقات التي يواجهها أقوامهم، وأعني بالمشقات، تلك
الأمور التي يصعب تحملها: العوز، الألم، الكدح، التعب، الغم،
الأذى، تحمل الظلم، وما شابه ذلك.

القادة العظماء الذين يرتضون قدرهم، ويسلكون هذا الطريق
المرهق الشائك نحو القيادة، مثل المهاتما غاندي في الهند، ونيلسون
مانديلا في أفريقيا، ينالون أمراً من النادر أن يحصل عليه القائد، ألا
وهو السلطة الأخلاقية.

عندما كانت جماعة الموحدين، الصغيرة، في مكة، تتعرض
للاضطهاد والتعذيب، من قبل الأكثرية من قريش، الذين كانوا

يسعون إلى منع انتشار أسلوبهم في الحياة، كان محمد ﷺ يشاركهم تلك المشقة.

ثم ذهبوا معاً إلى المنفى الاختياري، وتركوا بلدهم المحبوب والمحفوف بالخطر.

وفي المدينة، حيث استقر بهم المقام، وجدوا أنفسهم في واحة كبيرة، تنشر خضرتها في الصحراء المحيطة بها، وكانت المدينة عامرة بسكانها، من القرويين الذين ينتمون إلى عشائر مختلفة.

ما إن وصل المسلمون إلى المدينة، حتى أقاموا أول مسجد في العالم، وقد شارك محمد ﷺ في بنائه مع البنائين والحرفيين، وكأنه واحد منهم.

لقد كان وجود محمد ﷺ بينهم، كقدوة، مصدر إلهام، وبعث فيهم الهمة، فراح الرجال يترنمون بهذه الكلمات الظرفية:

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل

لم يكن أي منهم يرضى أن يبدو مرتاحاً، بينما النبي ﷺ يعمل في حر الشمس، تلك هي فعالية القدوة.

المهاجرون والأنصار يعملون معاً الآن كفريق واحد، له مهمة مشتركة، كما أنهم يشتركون في إيمانهم بالله، وبالجنة التي يرجون دخولها بعد الموت:

لا عيش إلا عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

كان عمار بن ياسر، (عبد سابقاً وأحد المهاجرين)، قد أحدث شيئاً من المرح، عندما ترنح بشدة، من ثقل الحجارة التي يحملها على ظهره، حتى غدا جسمه منثنيّاً على نفسه بشكل كامل، وراح يشتكي

إلى محمد ﷺ: 'قتلوني، يحملون علي ما لا يحملون.' وللأسف لم نعرف ماذا كان جواب محمد ﷺ⁴⁰.

عندما يكون للناس عقل وقلب واحد، فإنهم يستطيعون تحريك جبل ناي⁴¹.

كونفوشيوس.

كان محمد ﷺ يشارك في العمل، فعند حفر الخندق الدفاعي حول أجزاء من المدينة، سنة 627 ميلادية، حمل محمد ﷺ المعول، واشتغل بالحفر مع بقية الرجال.

لقد حمل سلالاً من التراب على كتفيه، وشارك الناس في إنشادهم.

يروى سلمان الفارسي، أنه أثناء حفر الخندق، اعترضته صخرة كبيرة، وراه النبي ﷺ يكافح، فاقترب ليساعده، وأخذ الفأس فضرب بها ضربة عظيمة، فانفلقت جزأين.

كان واضحاً استعداد محمد ﷺ للمشاركة في أي عمل، حتى الأعمال المنزلية المعتادة، كما يروي لنا خادمه أنس بن مالك: خدمت النبي ﷺ تسع سنين فما أعلمه قال لي قط هلا فعلت كذا وكذا، ولا عاب علي شيئاً قط.

لم يكن محمد ﷺ يستطيع الجلوس ومشاهدة الآخرين يعملون.

40 بل نعرف ماذا كان جواب النبي ﷺ! قالت أم سلمة: فرأيت رسول الله ﷺ ينفض وفرته بيده - وكان رجلاً جعداً - وهو يقول: 'ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك إنما يقتلك الفئة الباغية'.

41 أعظم جبل معروف على زمن كونفوشيوس.

كان النبي ﷺ في بعض أسفاره⁴²، فأمر بإصلاح شاة، فقال رجل: يا رسول الله، علي ذبحها، وقال آخر: علي سلخها، وقال آخر: علي طبخها، فقال النبي ﷺ: وعليّ جمع الحطب، فقالوا: يا رسول الله نحن نكفيك، فقال: قد علمت أنكم تكفوني، ولكني أكره أن أتميز عليكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه، وقام ﷺ وجمع الحطب. عندما قرأت هذه القصة، تخيلت محمداً ﷺ في شبابه، يقود قافلة تجارية على جملة، إنها تصور لنا بشكل جيد المقولة المروية عنه: سيد القوم خادمهم⁴³

كان قبول محمد ﷺ الاستماع لمشورة الآخرين، والعمل بها، يساعده ويساعد قاده، على اتخاذ قرارات إستراتيجية حكيمة. في معركة تدور في الصحراء، كان التحكم بينابيع الماء مسألة حياة أو موت، كما في قصة غارة عودة أبو تايه (انظر الفصل الرابع). وقبل معركة بدر، سنة 624 م. رافق محمد مجموعة متقدمة، لتأمين عين ماء من جهة المدينة، وما إن توقفوا للراحة، تقدم أحد البدو، يدعى الحباب بن المنذر بن الجموح، من بني سلمة، وكان من المؤيدين لهم، ويعرف المنطقة بشكل جيد، وقال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمتزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، عند ذلك أشار عليه الرجل بأن ذلك ليس المكان الصحيح للوقوف فيه، بل يجب عليهم أن يغوروا العيون القريبة من العدو، وأن يقيموا حوضاً للماء لأنفسهم، وبذلك سيكون عندهم الكثير من الماء، وسيتمكنهم مقاتلة العدو، الذي لن يكون عنده ماء للشرب.

قال النبي: لقد أشرت بالرأي، أي إنها خطة ممتازة، وعملوا بها مباشرة: فتم إغلاق العيون، وأنشئ الحوض، ومُلىء بالماء، وصار رجاله يتزودون منه.

كانت معركة بدر أولى المعارك، واجه فيه ثلاثمائة مسلم أكثر من ألف من أهل مكة، تعطينا لمحة أخرى مشرقة عن قيادة محمد. لاحظوا ثقته ورباطة جأشه، معتمداً على ثقة كاملة بالله. عندما يتسم القادة ويمزحون في مثل تلك الحالات، فإنهم يزيلون التوتر من نفوس جنودهم، ويبثون فيهم الثقة. وكان محمد كعادته، مشاركاً في إنجاز العمل اللازم، وفي هذه الحالة قام بتنسيق تشكيلات المسلمين.

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُيُوتًا مَرْضُوصًا.

القرآن الكريم، سورة 61، آية 4

بينما كان محمد يسوي الصف يوم بدر وفي يده قذح فمر سواد بن غزية، فطعن في بطنه، فقال أوجعتني فأقديني، فكشف عن بطنه فاعتنقه وقبل بطنه، فدعا له بخير.

مع جنود كهؤلاء لن تواجه حروباً خاسرة. كان محمد ﷺ حازماً بما يكفي، عندما يتطلب الموقف حزمًا، مثلما حصل بعد هزيمة المسلمين في معركة أحد خارج المدينة. كان يضع خوذته في الحرب، ويرتدي درعاً من الحديد، وأحياناً يرتدي درعين⁴⁴.

44 عن السائب بن يزيد: أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظاهراً يَوْمَ أُحُدٍ يَتَيْنِ دُرْعَيْنِ (أي جمع وليس أحدهما فوق الأخرى).

42 خلاصة سير سيد البشر، للطبري (1/87)، والرحيق المختوم، للمباركفوري، بدون إسناد.

43 الحديث ضعيف، على أنه قد يقال إنه حسن لغيره لتعدد طرقه، (العجلوني في كشف الخفاء).

وَجَعَلَ لَكُم سِرَاطِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسِرَاطِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ.

القرآن الكريم، سورة 16، جزء من الآية 81

وكان عدد من المقاتلين يلازمونه لحمايته.

رغم ذلك كله، فإنه بالكاد نجا من الموت في معركة أحد.
فقد رُمي بالحجارة حتى وقع على جانبه، وجرح وجهه وكُسرت
رباعيته، وهشمت الخوذة على رأسه.

يمكنكم أن تتخيلوا مدى استياء محمد، عندما سمع فيما بعد،
أن أحد المسلمين، من الأوس، استغل الفوضى في ساحة المعركة،
فقتل رجلاً من الخزرج، الذين كانوا يقاتلون في صفه⁴⁵، لأنه كان
مطلوباً للثأر، وقد شاهده أحدهم وبلغ عنه، وتم التأكد من صحة
الخبر من خلال تحقيق دقيق.

كانت الجريمة أكبر من خرق فطيع للقواعد العسكرية في ميدان
المعركة. فقد وضع حاجة قبيلته للثأر، وشرفه الشخصي، فوق مصلحة
الجماعة ككل، وساهم بذلك في الإخفاق الذي أصاب المسلمين
ذلك اليوم. وفوق ذلك، فإنه بقتله رفيق السلاح بتلك الطريقة، يكون
قد انتهك قانوناً عند البدو. كما إن قدرة الجيش الإسلامي الصغير،
تأثرت بفقد رجل عزيز. وأخيراً، فإن فعلته يمكن اعتبارها إثماً بحق
الله والقضية المقدسة.

كان لا بد من فعل شيء، حتى لا يضعف تقدير الجنود المسلمين
لقياداتهم.

ليس من الرجولة أن تفوض للآخرين القيام بالمهمة التي لا
تحبها، ركب محمد ﷺ بغلته وتوجه إلى مسجد القبيلة التي ينتمي

إليها القاتل، والتي تقع بين بساتين النخيل في واحة المدينة.

وجد زعماء الأوس مجتمعين هناك، واجتمع محمد بهم، ثم
أمرهم بإحضار القاتل وتنفيذ الحكم بحقه فوراً وعلناً.

وعندما ركب محمد بغلته اندفع المتهم وأمسك بركاب رسول
الله ﷺ مستجدياً الرحمة، ولكن النبي أشاح بوجهه عنه⁴⁶.

كان ذلك ضرورياً لبناء فريق عمل، وبذلك يستطيع كل جندي
مسلم أن يثق بجاره الذي في صفه، وكأنه أخوه.



بعد معركة حنين ضد هوازن، لعلمكم تذكرون كيف تصرف
محمد ﷺ بحكمة سياسية كبيرة، لتنظيم قضية نساء وأطفال هوازن.
سرعان ما واجهته مشكلة أخرى!

فعندما تحرك النبي لإكمال الترتيبات لإعادة العائلات إلى
أقربائها، لحق به جمع من البدو، من قبائل شتى، ممن قاتلوا في
المعركة، وأحاطوا به: يا رسول الله أقسم علينا فيثنا. واستمروا في
الإلحاح عليه بإصرار واستعجال، بأصواتهم البدوية. واضطروه إلى
شجرة، حتى انتزعوا ردائه عن ظهره، فقال: ردوا علي ردائي، لا أبا
لكم، فوالذي نفسي بيده، لو كان لكم عدد شجر تهامة نعماً لقسمته
عليكم، ثم ما ألفتيموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً.

بعد أن تم توزيع النوق أخيراً، قدم محمد من حصته، هدايا
سخية لأربعة أشخاص من سادة قريش، قبيلته التي ينتمي إليها، مائة
ناقة لكل واحد منهم.

46 روى الإمام البيهقي عن الواقدي في ذكر من قُتل بأُحد من المسلمين قال: ومجذر بن زياد،
قتله الحارث بن سويد، غيلة. (السنن الكبرى للبيهقي 8/57، وقال عنه: ضعيف)

45 كان الحارث بن سويد بن الصامت يريد الثأر من المجذر بن زياد الذي قتل أباه في حرب
الأوس والخزرج

كانوا من ألد أعدائه حتى وقت قريب جداً.

وهديتان مماثلتان لاثنتين من زعماء قبائل الصحراء الذين اعتنقوا الإسلام، وقاتلوا ببسالة في حنين.

جاء الآن دور المسلمين من أهل المدينة، الأنصار، لكي يشعروا بأنهم لم يعاملوا بعدل.

ألم يكونوا أول من النف حول محمد بعد الانسحاب والإصابة المؤلمة؟

كما كان لهم دور الأسد في القتال، ألا يستحقون أن يكونوا أول من يتلقى المكافأة؟

لكنهم مع ذلك لم يحصلوا على أية جمال.

جاء سعد بن عباد، أحد زعماء الأنصار، فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء، قال محمد ﷺ: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال سعد: يا رسول الله، ما أنا إلا امرؤ من قومي، قال محمد ﷺ: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة، فخرج سعد فجمع الناس في تلك الحظيرة، فأتاهم رسول الله فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا معشر الأنصار! ما قاله بلغتنى عنكم، وجدة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضللاً فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بل الله ورسوله أمّن وأفضل، قال: ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟ قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله؟ ولله ولرسوله المن والفضل.

قال: أما والله لو شئتم لقلتكم، فلصدقتكم وصدقتكم، أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فأغنيناك، أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار، في لعاعة من الدنيا، تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله في

رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً، وسلكت الأنصار شعباً، لسلك شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، كان أثر كلمات محمد ﷺ بالغاً على الأنصار، حتى سالت دموعهم، وبعبارة بدوية: بكى القوم حتى اخضلت لحاهم، وقالوا رضينا برسول الله قسماً وحظاً. تلکم هي القيادة.



في ربيع سنة 622 قرر محمد ﷺ السير بصورة سلمية نحو مكة، لأداء العمرة، مع ألف من أصحابه المخلصين، يحملون سيوفاً فقط، لا رماح ولا سهام، انطلق في المسيرة جنوباً، ولكن قريش كانت مصممة على منعهم من بلوغ الكعبة.

بعد مفاوضات مطوّلة في المعسكر الإسلامي، في وادي الحديبية، على مسافة 8 أميال من مكة، بدا وكأن محمد وافق على التنازل، وانتهى إلى عقد هدنة لعشر سنوات مع قريش، كانت غير مرضية لكثير من أتباعه.

كان عمر بالتحديد غاضباً، وسأل النبي فقال: يا رسول الله، ألسنا على الحق، أو ليس عدونا على الباطل؟ قال محمد: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟

كانت أسئلته صدى لما يدور في خيام المسلمين.

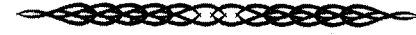
عندما انصرف مبعوثو قريش قرر محمد أن يذبح الهدي المكون من 72 جملاً، والتي أحضرت من أجل الشعائر المتوقعة عند الكعبة.

وقام رسول الله ﷺ فقال للناس: (قوموا فانحروا هديكم واحلقوا وحلّوا)، فما قام رجل ولا تحرك، فأمر رسول الله ﷺ الناس بذلك ثلاث مرات، فما تحرك رجل ولا قام من مجلسه، فلما رأى النبي ﷺ

ذلك عاد إلى خيمته وهو مستاء. لم يسبق أن حصل مثل هذا التلكؤ من أتباعه.

كانت أم سلمة، إحدى زوجاته، مسافرة معه، تنتظره في خيمته، ونصحته بأن يخرج فوراً ولا يتكلم بشيء، وأن يفعل بالضبط ما أمرهم بفعله (أخرج أنت فاصنع ذلك)، استمع محمد لنصيحتها فقام حتى يمم هديه فنحره، فلما رأى الناس ما صنع رسول الله (ص) وثبوا إلى هديهم فنحروه.

هنا ظهرت فعالية القيادة من المقدمة (القيادة بالقدوة) فقد سارع المسلمون إلى الاقتداء به، وانتهت بذلك الأزمة.



تذكر أن منصبك لا يمنحك الحق في إعطاء الأوامر، إنما يلقي عليك مسؤولية أن تعيش حياتك على نحو يجعل الآخرين يتلقون أوامرك بدون إذلال.

داغ همر شولد⁴⁷، الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة

نقاط رئيسية

- مثل محمد مبدأً عالمياً للقيادة الجيدة، من خلال مشاركته قومه في الأعمال والمخاطر والمشقات، وهو ما يتوقعه الناس في

قرارة نفوسهم من قياداتهم، وعندما لا يتحقق، فإنه يؤدي إلى انتقادات مناوئة.

- يوجد نوعان من السلطة: سلطة المنصب، وسلطة العلم، والسلطة تتجه نحو أهل العلم، ولكن المشاركة في المشقات تمنح القائد أمراً نادراً: السلطة الأخلاقية.
- مثل هذا السلوك من أفضل القيادات، يُكسبهم ما هو أهم من احترام الناس، وهو محبتهم، والحب هو أعظم قوة في العالم، كما كتب هوانانزي في أحد النصوص التأويّة التقليدية:

في قديم الزمان، كان القادة الجيدون في الطليعة بأنفسهم دوماً، لم ينصبوا لأنفسهم مظلات في الحر، ولم يلبسوا الجلود في البرد، وبذلك اختبروا نفس ظروف الحر والبرد التي كان يعيشها جنودهم.

لم يكونوا يركبون عندما تكون الأرض وعرة، كانوا يجتازون الجبال مترجلين، وبذلك اختبروا المشقات التي يكدح في مواجهتها جنودهم.

كانوا لا يأكلون إلا بعد أن يكون طعام قواتهم قد تم تجهيزه. كانوا لا يشربون إلا بعد أن يُقدّم الماء إلى قواتهم. وبذلك اختبروا الجوع والظماً مثل جنودهم.

كانوا في المعركة يقفون ضمن مدى نيران أعدائهم، وبذلك اختبروا المخاطر نفسها كجنودهم.

وهكذا كانوا في عملياتهم العسكرية يواجهون المرات المتراكمة بالامتنان المتراكم. والكراهية المتراكمة بالمحبة المتراكمة. فلماذا لا ينتصرون؟

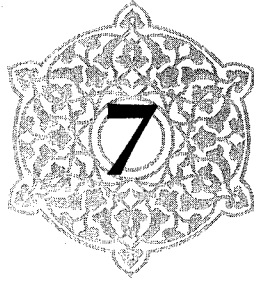
أفضل ما يكون القائد،

عندما لا يكاد الناس يشعرون بوجوده،

ليس الأفضل عندما يطيعه الناس ويصفقون له،

وليس الأسوأ عندما يستخفون به.

47 داغ همر شولد (1905 - 1961) (Dag Hammarskjöld) اقتصادي سويدي، والأمين العام للأمم المتحدة بين 1953 و1961.



التواضع

البداية⁴⁸ من الإيمان

محمد ﷺ

كانت مهمة محمد ﷺ أن يكون رسول الله، إنه أحد مصطلحين قرآنيين يشيران إلى محمد والأنبياء الآخرين، والمصطلح الآخر هو (نبي)، ويبدو أن القرآن استعمل التعبيرين كمترادفين. الرسول يكون مكلفاً بمهمة تبليغ رسالة بلغة محددة. أما النبي فهو الذي يتلقى رسالة عن طريق الوحي الإلهي، تتضمن تعاليم روحية وأخلاقية، وبالإنكليزية prophet. أصلها اللاتيني prophetes. وتعني: المترجم لإرادة الله، أو المتكلم عن الله، الناطق باسم الله. يجب أن تكون شخصية النبي ذات مصداقية، فعندما لا تتمثل الرسالة في شخصية النبي، فسيعتبر مخادعاً.

إذا لم تحترم الناس لن يحترموك.
ولكن القائد الجيد من يكون قليل الكلام.
عندما يكون عمله قد أنجز، وهدفه قد تحقق،
سوف يقولون جميعاً: نحن عملنا هذا بأنفسنا.
لاوتزو (من القرن السادس قبل الميلاد)

كان للأنبياء لباس متميز فضفاض، حسب الأسفار المقدسة العبرية، ومحمد ﷺ بالتأكيد كان له ثوبه الذي يلف به نفسه ويتلقى الوحي فيه.

تأمل دقيقة في ذلك الثوب، كرمز للدور المنوط به، عندما يلبس محمد ﷺ ثوبه، كان يتكلم ويتصرف بناء على الدور الموكل له.

فيما يخص دوره كنبى، لا يبدي محمد ﷺ أي تساهل، إنه لا يقبل أية معارضة، ولا يتساهل مع أي منافس، ولا يقبل أي حل وسط، إما أن تكون معه أو تكون ضده.

لقد كان خياراً واضحاً: إما أسود وإما أبيض، وأكد على اعتباره كنبى ورسول لله وعلى مكانته كخاتم للنبيين أجمعين، وعلاوة على ذلك، فإن محمداً ﷺ كان يرى، أن له الحق في الحكم على بعض الناشطين في معارضة رسالته، بأنهم أعداء لله، وقد أدانهم وعاقبهم بشكل مباشر أو غير مباشر.

بعبارة أخرى: مع كونه رحيماً جداً حتى مع ألد أعدائه، فإنه كان شديداً في حالات معينة.

قد يبدو الأمر لغير المسلمين وكأنه نوع من التكبر، إذ كيف يحق لأي كان، أن يدعي معرفة ما يريده الله، على هذا النحو؟ أو أنه قال الكلمة النهائية عن الله، فيما يتعلق بالإنسانية جمعاء؟

ولكن بالتأكيد، لم يكن محمد ﷺ وأتباعه المخلصون يرون الأمر هكذا، إن الله قد تكلم، تلك هي نهاية القضية.



إنه من الواضح إذاً أن محمداً ﷺ، باعتباره نبياً، لم يكن رجلاً عادياً، ولا حتى بمعايير عصره، ولكن الرجال العاديين لا يمكن أن يغيروا العالم. وبالمناسبة، إن تغيير عالمه لم يكن أمراً سهلاً، فالتغيير يحتاج إلى قادة، والقادة يُحدثون التغيير.

ولكن الجزيرة العربية تظل بشكل أساسي مجتمعاً بدوياً صحراوياً، محافظاً، تقليدياً بشدة، متمسكاً بعباداته وطريقته في الحياة بشكل عميق، وأي إنسان يتحدى معتقداتها وقيمها سيعرض حياته للخطر.

حيث لا يوجد تحدي فمن المحال أن تمارس القيادة. كانت طريقة محمد ﷺ في مقارنة تلك الحالة، إذا صح التعبير، هي الطريقة الوحيدة الممكنة في مثل ذلك المجتمع.

قال محمد ﷺ إنه قد أرسل ليعيد مكة إلى حالتها الأصلية، ويزيل ما أحدث فيها من تغييرات حتى تعود مركزاً لدين إبراهيم والإله الواحد.

لقد ورد ذكر إبراهيم في القرآن 69 مرة، وفي الحقيقة لم يتكرر أكثر منه إلا موسى، ذلك النبي الذي كان محمد شديد الإعجاب به، فقد ورد ذكره (136) مرة.

يُذكر إبراهيم في القرآن والكتاب المقدس بصفته نبياً، (القرآن السورة 19 الآية 41) والدين الذي أطلق عليه بعده (دين إبراهيم) (القرآن السورة 16 الآية 123) وكانت له صفته الخاصة. (القرآن السورة 53 الآية 36 والسورة 87 الآية 19).

أسس إبراهيم بالاشتراك مع ابنه إسماعيل أول معبد لله في مكة. كان محمد ﷺ حنيفاً مثل بعض أهل مكة من أتباع دين إبراهيم، وذلك قبل بعثته كرسول لله، حيث كان إبراهيم حَمَلُ إسماعيل أمانة عقيدة الإيمان بالله الواحد، ومن خلال إسماعيل إلى أحفاده من العرب، فكان إسماعيل معروفاً عند العرب قبل ولادة محمد ﷺ.

وبحسب المصدر التاريخي اليوناني (التاريخ الكنسي Ecclesiastical History) المكتوب في القرن الخامس، فقد كان سوزومين⁴⁹ Sozomen من أهل غزة، وكانت لغته الأم هي العربية،

49 مؤرخ كنسي من القرن الخامس.

وهكذا يوجد لدينا دليل من مصدر يعتمد عليه على أن بعض العرب -على الأقل في تلك المنطقة- كان شائعاً فيهم الاعتقاد بأنهم يرجعون في أصلهم إلى التوحيد الإبراهيمي، ومن الصعب تقدير إلى أي مدى كان ذلك صحيحاً، بالنسبة للعرب في أجزاء أخرى من شبه الجزيرة العربية.

كان أسلاف الساميين الذين استوطنوا مركز شبه الجزيرة العربية، يطلقون على الإله الخالق الأعلى اسم (إيل) وهو يشبه الاسم الذي يستعمله المسلمون (الله = ال إله)، وهو موجود بصيغ مختلفة في ثقافات سامية أخرى، فاسم إسرائيل أعطي ليعقوب، ومعناه الذي يعبد إيل (=عبد الله) وقال عيسى المسيح (إيل إيل، إلهي).

وبناء على الرواية التي تقول إن الكعبة في مكة كانت مركزاً لعبادة الله، أعطى محمد لقومه رواية جديدة عن ماضيهم، رواية عظمت من شأنهم ومجدت تاريخهم، بمعنى أن إبراهيم هو نفسه جاء إلى مكة، وهناك أطاع الله بتقديم إسماعيل ابن هاجر، وليس إسحاق ابن سارة، قرباناً لله.

بعبارة أخرى، إن العرب الذين استقاموا على العقيدة الإبراهيمية التوحيدية الصحيحة، قد جاءهم وحي إلهي مباشر يوجههم.

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

القرآن الكريم، سورة 3 - جزء من الآية 110

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا

القرآن الكريم السورة 2 جزء من الآية 143

يخبرنا ابن إسحاق رواية بإسناد جيد، عن حوار بين النبي ﷺ وأحد زعماء المدينة: أبو عامر، الذي سأل عن الدين الذي جاء به محمد إلى المدينة: (ما هذا الدين الذي جئت به؟)

قال محمد ﷺ: جئت بالحنيفية دين إبراهيم.
أبو عامر: فأنا عليه.

قال له رسول الله: إنك لست عليها.

أبو عامر: بلى، إنك يا محمد أدخلت في الحنيفية ما ليس منها.
محمد ﷺ: ما فعلت، ولكنني جئت بها بيضاء نقية.

أبو عامر: الكاذب أماته الله طريداً غريباً وحيداً.

قال رسول الله: أجل، فمن كذب ففعل الله تعالى ذلك به.

يخبرنا ابن إسحاق بسعادة بالغة أن الأحداث أثبتت أن أبا عامر، عدو الله، كان هو الكاذب، فقد غادر المدينة إلى مكة، وعندما سيطر محمد على مكة انتقل إلى الطائف، وعندما غدت الطائف مسلمة ذهب إلى سوريا، حيث مات في منفى اختياري.



بدون دخول في المسائل العقدية بخصوص نبوة محمد ﷺ، وإنما من زاوية القيادة يمكنني أن أتفهم تصميمه على القيام بذلك الدور، فهذا الشعار (إله واحد، نبي واحد)، شعار الإسلام، هو ببساطة تطبيق لمبدأ وحدة القيادة.

عندما يضيع الرعاة تضعيع الخراف، يقول المثل البلغاري

لو سمح محمد لأنبياء آخرين في الجزيرة العربية، وقد ادعاهم بعض أصحاب النفوذ في قبائلهم، فإن رؤيته للمجتمع الجديد، والدين الجديد، كانت سوف تتحطم في حياته.

يقول مثل روسي معبراً عن الخبرة الإنسانية في عبارة موجزة: عندما يوجد سبعة رعاة لن يكون هناك قطيع.



عندما كان محمد ﷺ يحتاج أن يتكلم لا باعتباره نبياً، فإنه كان هو نفس الرجل الذي كان يقود القوافل التجارية ويعانق زوجته خديجة. فالحد الفاصل بين الله والإنسان يتركز في التوحيد.

كان تركيز محمد ﷺ بشكل مستمر على أنه بشر، لا أكثر ولا أقل، كان ذلك جزءاً من الرسالة التي كُلفَ إيصالها.

إن البساطة التي تمثلت في محمد ﷺ لم تكن بركة خاصة أعطيت لنبي رأى الله أو كلمه، فعلى سبيل المثال نجد أن موسى كان (حليماً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض) (سفر العدد الإصحاح 12 رقم 3)

لقد كانت بساطة تصلح لأي إنسان له صلة بالله، خصوصاً لأولئك العرب، قوم فقراء لكنهم فخورون بأنفسهم، وبإخضاع أنفسهم لله في الإسلام ارتفعوا فجأة إلى مكانة عظيمة بين الأمم.

عندما كان الخليفة عمر بن الخطاب يسير مع جيشه نحو دمشق، كان معه أبو عبيدة، وصلوا إلى بحيرة صغيرة، ترجل عمر عن ناقته وخلع نعليه وطوهما ثم علقهما تحت كتفه، ثم أخذ بخطام ناقته ودخل في الماء. لم يتمالك أبو عبيدة نفسه وهو يرى هذا أمام الجيش فقال: لقد صنعت اليوم صنيعاً عظيماً عند أهل هذه الأرض! فصلك عمر في صدره، وقال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! إنكم كُنتُم أذل الناس، وأحقر الناس، وأقل الناس، فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العز بغيره يرجعكم إلى الذل.

كلمة (التواضع) في اللغة اللاتينية مشتقة من كلمة *humus* (أرض)، وكذلك كلمة *homo* (إنسان) تأتي من نفس الأصل.

نحن خلقنا من الأرض، وإلى الأرض سوف نعود، كما قيل في التوراة.

التواضع، أو خفض الجناح، دلالة على أنه إنسان، لا أكثر ولا أقل، وليس إلهاً.

وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا
القرآن 17:37

التواضع بهذا المعنى هو فضيلة في أي شخص، بغض النظر عن كونه معتقداً بالخالق أم لا.

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ

القرآن، السورة 31 الآية 18

إن التواضع بهذا المعنى هو أكثر أهمية بالنسبة لأولئك الذين يشغلون مكاتب القيادات العليا.

السلطة تميل إلى الفساد، والسلطة المطلقة مفسدة مطلقة⁵⁰.

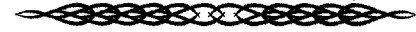
إن أسوأ مفسدة بالنسبة للقائدي هي أن يعتقد، أو يشجع الآخرين على الاعتقاد، بأنه أكثر من إنسان، أنه إنسان خارق، أو أنه شبه إله. أو حتى أنه إله في بعض الحالات المتطرفة. هذا آخر أشكال الوثنية التي حاربها محمد ﷺ. خصلة التواضع ليست مجرد لقاح يحصن القادة ضد الغطرسة التي تُسخط السماء، إنها أيضاً ترياق لداء العجرفة والاستبداد.

فالمتغطرسون يعطون أنفسهم سلطة وقوة أكثر مما يستحقون. وبالمقابل فإن المتواضعين من الناس يعرفون حدودهم، إنهم يعلمون ما الذي يعلمونه، ويعلمون ما الذي لا يعلمونه، ويعلمون ما الذي يمكنهم أن يفعلوه أو الذي يمكنهم أن يكونوا عليه، ويعلمون ما الذي لا يستطيعون أن يعملوه أو أن يكونوا عليه، وبالنسبة فإنهم

50 المؤرخ لورد أكتون في رسالة إلى العالم والكاهن Mandell Creighton. ابريل 1887.

لا يرفضون الإصغاء إلى نصيحة، حتى ولو كانت غير لبقة، كما لا يرفضون طلب المساعدة أو قبولها.

لعلكم تذكرون كيف كان محمد ﷺ، عندما يتكلم بغير صفة النبوة، مستعداً لقبول المشورة، وقد يغير رأيه على ضوء ما سمعه، بعبارة أخرى: كان يجمع بين مرونة القائد والثبات على رأيه. أية خطة سوف تكون فاشلة إن لم تكن قابلة للتغيير.



لم يكن العرب في عصر محمد ﷺ كالخروف الوديع، كانوا يستجيبون فقط للقيادة الفعالة، لم تكن قيادتهم أمراً هيناً على الإطلاق.

عندما تولى الخلافة عمر بن الخطاب كان من دعائه: اللهم إني غليظ فليتي، وضعيف فقوتي، إنما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده، فلينظر قائده حيث يقوده، وأما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق!

في دعاء عمر تجسيد للتواضع، إنه يطلب القوة والهداية من الله، مقرأً بضعفه الذاتى.

يقول مثل عربي: إذا أراد الله بعبد خيراً، بَصَّرَهُ بعيوبه. كان عمر قائداً عربياً محنكاً، ولكنه كان قاسياً وخشناً في معاملة الناس، لم يكن فيه شيء ناعم.

عندما يكون المدير خشناً فإنه يكون قاسياً ولا يراعي مشاعر الآخرين، ولكن عمر أراد أن يطور نفسه كقائد، من جهة لأنه كان يعلم أن العرب لن ينقادوا لأسلوبه بشكل جيد، ومن جهة أخرى فإنه رأى في محمد ﷺ نموذجاً لما ينبغي أن يكون عليه.

تحتاج القيادة شدة وصرامة ولكن بعدل، كما تحتاج لطفاً ورقة ورحمة.

عندما تكون هاتان العينان مبصرتين ومتوازنتين، كما هما في طبيعتهما، عندئذ يمكنك أن تقود العرب أو أي شعب آخر.

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ
القرآن الكريم، سورة 3، جزء من الآية 159

هذه هي معالم القيادة عند محمد ﷺ، سواء لنفسه أو لخلفائه أيا كانوا، وبالتأكيد لكل من يكلف خدمة الآخرين من خلال مهمة القيادة.

أن تكون رفيقاً فلا تبالغ في استعمال القوة أكثر مما هو ضروري للحصول على النتيجة المطلوبة. وأن تبدي لطفاً واهتماماً بالآخرين. هذا الاجتناب للشدة، والتعامل المعتدل بشكل أساسي، كان صفة محمد ﷺ.

الحكمة القرآنية تعارض كلا الأمرين المتطرفين:

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا.

القرآن الكريم، السورة 17، الآية 29

وكمثال فإن بعض البدو جعلوا أنفسهم متسولين، بإعطاء كل ما لديهم بسخاء، لعابري السبيل، كي يشتهروا بالكرم في المجتمع الصحراوي.

عاش محمد ﷺ في المدينة في بيت طويل، منخفض السقف، مبني من الحجارة الطينية، مسقوف بأوراق النخيل، وله نوافذ مفتوحة، كان قد ساهم في بنائه شخصياً بيديه.

لقد كان أشبه بخيمة بدوية، أكثر منه بيتاً في مدينة.

كان مقسماً بجدران فاصلة لأجل زوجاته، ومحمد ﷺ سيد الخيمة، كما عند البدو، ليس له مكان مخصص للنوم.

لم تكن عندهم مرافق صحية، فكانوا يمشون في الصحراء لقضاء حاجتهم الطبيعية.

أقام محمد ﷺ لاحقاً حجازاً، مثل الذي يستعمل في خيام البدو السوداء في الصحراء، وذلك حتى لا تظهر زوجاته أمام ضيوفه وزواره العديدين.

لم يأكل على طاولة أبداً⁵¹، ولكنه كان يجلس على ركبتيه أو متربعا في الهواء الطلق كما هي عادة العرب البدو.

لم يكن ثمة سجاد، وإنما مجرد حصيرة منسوجة من سعف النخيل.

وكان يستعمل يده اليمنى لتناول الطعام، ونادراً ما استعمل السكين⁵².

كان يفضل الثوب البسيط والعباءة.

بعبارة أخرى إنه لم يكن يقبل أي تعظيم خاص لشخصه.

عندما يدعوه مضيف إلى زيارته ويرسل خادماً أو غلاماً ليوصل النبي إلى بيته، لم يكن محمد ﷺ يمشي أمام الآخرين كشخص عظيم مع أتباعه، كان يدع الخادم أو الغلام يمشي أمامه ليدله على الطريق. لقد اتبع التقليد الشائع عند البدو، بأن المبعوث الذي أرسل ليحضرهم يقوم بتوصيلهم باليد إلى وجهتهم، وبالمناسبة فإن تلك العادة كانت لا تزال عند أصدقائي من البدو، عندما كنت جندياً في الفيلق العربي، في منتصف القرن الماضي.



51 وورد من حديث أنس بن مالك قال: 'ما أكل النبي على خوان ولا في سكرجة ولا خبز له مرقق'. رواه البخاري (5099).

52 لم يرد أن النبي ﷺ استعمل السكين في الأكل، ولكن هذا لا يدل على النهي الشرعي.

لم يكن محمد ﷺ يقبل أن يُحجز له مكان عندما يحضر اجتماعاً وإنما كان يجلس في أي مكان فارغ.

كان لا يرضى أن يقوم له الناس تعظيماً.

قال محمد ﷺ لهم: 'أكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد'⁵³

بعبارة أخرى لم يكن يقبل أن تكون له معاملة متميزة.

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا

القرآن الكريم سورة 25 الآية 63

تروي المصادر الإسلامية قصة عن المسيح نقلاً عن المسيحيين القدماء في سوريا، تصور لنا هذه القصة مضمون تلك الآية من القرآن:

مرّ عيسى ابن مريم بقوم من اليهود، فقالوا له شراً، فقال لهم خيراً، فقيل له: إنهم يقولون شراً وأنت تقول خيراً؟ فقال: كل يتفق مما عنده⁵⁴.

كان النبي ﷺ إذا استقبله الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع يده، ولا يصرف وجهه من وجهه حتى يكون الرجل هو يصرفه.

عندما يكلم شخصاً، لا ينظر فوق كتف الشخص وكأنه يريد أن يكلم شخصاً أكثر أهمية. ولا يبدي لمُحدّثه أية علامة على الضجر. يتذكر الناس وجهه دائماً.

53 رواه أبو يعلى (8 / 318).

54 إحياء علوم الدين - بيان فضيلة الحلم

جاء رجل ذات مرة ليزور النبي ﷺ، وكانت أول مرة يحضر فيها مجلساً للمسلمين، كان الرجل خائفاً ومنفعلاً، كان ذلك أمراً عادياً بحكم إيمان الرجل بأنه يزور رسول الله وقائد الأمة الإسلامية القوية. عندما شعر النبي ﷺ بما يقلق الرجل طمأنه بأن خاطبه قائلاً: هوّن عليك، فإنما أنا ابن امرأة من قريش، كانت تأكل القديد في هذه البطحاء.

كان محمد ﷺ يكره من يغتاب الناس، وكان يحرص دائماً على حفظ مكانة الناس وكرامتهم. فعلى سبيل المثال، إنه لم يكن يتحدث عن أخطاء الناس علانية، مع أنه كان صريحاً معهم وبشدة على انفراد. لا نجد في أية رواية أن محمداً ﷺ فقد أعصابه، أو خرج عن طوره، أو أنه استشاط غضباً فضرب أحدهم. لقد رأى أن الغضب بشكل غير منضبط يُعتبر نقصاً في القائد، وليس فضيلة، بل معصية لله، عندما طلب منه أحدهم نصيحة قال له: لا تغضب.

لقد عاش وفقاً لأقواله، وأراد لأتباعه أن يفعلوا كذلك، ويمكنني أن أضيف هنا أن ذلك لم يتحقق بشكل كامل، ولكن محمداً كان أيضاً رجلاً خيراً وإحساناً. لقد عمل بروح المثل العربي القائل: تعامل مع أخطاء الآخرين برفق كما تحب أن تعامل أخطاؤك. كان محمد ﷺ عندما يستاء من شخص ما فإنه لا يشير إليه مباشرة.

وثمة شواهد من القرآن على أن محمد ﷺ كان يترعج من مغادرة البعض اجتماعاً قبل أن يغادره هو، ومن الذين يرفعون أصواتهم في حديثهم معه، بعض البدو بالأخص كان صوتهم مرتفعاً وخشناً.



علي بن أبي طالب (ت 661 م.) ابن عم النبي محمد ﷺ، والذي تم اختياره الخليفة الرابع (656 م.) جُمِعت خطبه ورسائله بعد موته

في كتاب يسمى (نهج البلاغة).

وفيه يعرض آراءه حول القيادة، في رسائله إلى عماله والقادة العسكريين.

في رسالته إلى مالك الأشتر، حاكم مصر، يبين أن القادة ينبغي أن يخضعوا للقانون والأحكام ذاتها التي يخضع لها الناس العاديون، ليس لهم أي استثناء أو وضع خاص، على الأقل عند الله.

وأوضح كذلك أن القائد يتحمل مسئولية متساوية نحو كافة الرعايا، بغض النظر عن المستوى:

يجب أن تختار الطريقة الأكثر إنصافاً للحق، والأكثر شمولاً للعدالة.

مكرراً تأكيداً على الحاجة إلى العدالة والمساواة والإنصاف. ولكن العلاقة بين القادة والأتباع تبقى المسألة الأهم في فكر علي.

في مقطع متميز من وثيقة التعليمات، يأمر القادة أن يتركوا أبوابهم مفتوحة للناس، بحيث يسهل على الناس الوصول إليهم: 'لا تطوّل احتجاجك عن رعيّتك، فإن احتجاج الولاة عن الرعيّة شعبة من الضيق، وقلة علم بالأمور. والاحتجاج منهم يقطع عنهم علم ما احتجوا دونه، فيصغر عندهم الكبير، ويعظم الصغير، ويقبح الحسن ويحسن القبيح، ويشاب الحق بالباطل، وإنما الوالي بشرٌ لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور'

وفي رسالة طويلة ومؤثرة لابنه وخليفته الحسن، كتبها علي عند موته، عن القيادة، حيث اعتبرها دعوة وواجباً، ويحض القادة على التواضع، وأن لا يبتغوا الغنى لأنفسهم.

إنه يطالب ابنه بأن يكون حذراً ومستعداً للتغيير: غالباً ما يخفى الفخ على ذي العينين، والأعمى يكتشف الطريق الصحيح.

إن من يظن العالم آمناً فسوف يخدعه ومن يعتبره عظيماً فسوف يذله.

عندما تتغير السلطة فإن الزمن سوف يتغير، بعبارة أخرى إن القائد الحكيم سوف يتوقع التغيير ويستعد له.

أفضل الحلم عند الغضب، وأفضل العفو عند المقدرة

عمر⁵⁵

نقاط رئيسية

- التواضع في أبسط معانيه أن تعلم أنك لست إلهاً.
- التواضع أمر أساسي للقائد حتى لا يكون مغروراً.
- يقول مثل عربي: التكبر يذهب بالحكمة. الإنسان المتواضع الذي يتخلص من كل مظاهر الغرور في الروح وفي المظهر الخارجي فإنه يسير في طريق تؤدي إلى الخبرة العملية.
- قال داغ همرشولد: إن التواضع يمثل حالة مناقضة لإذلال النفس أكثر من حالة تمجيد الذات.
- يوجه القرآن هذه النصيحة: لا تقف ما ليس لك به علم، القادة الحكماء يستشيرون فريقهم قبل اتخاذ قرار محدد. ويصغون بشكل خاص إلى أصحاب المعرفة التقنية والخبرة العملية في الموضوع.

55 لم أجده منسوباً إلى عمر بن الخطاب، ولكن عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: أحب الأشياء إلى الله أربعة: القصد عند الجدة، والعفو عند المقدرة، والحلم عند الغضب، والرفق بعباد الله في كل حال.

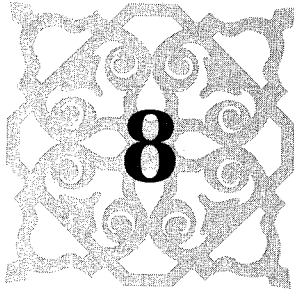
- قال عمر لأحد قاداته⁵⁶: لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك، وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل.
- تاج المروءة التواضع.
- مثل عربي يعكس نور القرآن وروح محمد ﷺ المشعة.

إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ⁵⁷

محمد ﷺ

56 من رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء

57 رواه أحمد وتتمته (وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَحُسْنُ الْجَوَارِ يَغْمُرَانِ الدِّيَارَ وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ)



من الماضي إلى الحاضر

الحقيقة بنت البحث

مثل عربي

اطلبوا العلم ولو في الصين

مثل عربي

اكتسب صلاح الدين الأيوبي، القائد الإسلامي المشهور في الغرب، سمعة حسنة راسخة، لدى الأعداء والأصدقاء على حد سواء، ليس فقط بسبب خبرته العسكرية، وإنما بسبب استقامته، ولطفه، وفروسيته.

مثل صلاح الدين، كقائد في الحرب والسلام، نموذج القائد الأمثل في الإسلام، حسب التصور الذي أوضحناه في هذا الكتاب، النموذج الذي علمه محمد ﷺ بنفسه، من خلال حياته، وتركه ميراثاً لكل أولئك الذين يريدون أن يحملوا مسؤولية القيادة على أكتافهم.

صلاح الدين، سلطان مصر وسوريا، اجتاحت المملكة الصليبية سنة 1187 وأحرز نصراً كبيراً في حطين على فرسان المسيحية، واستعاد القدس، وتمكّن من صد الحملة الصليبية الثالثة، التي كان يقودها ملك بريطانيا، ريتشارد قلب الأسد وآخرون، وبعد أربع سنوات تغلب ريتشارد على المسلمين في أرسوف⁵⁸، وانسحب صلاح الدين إلى دمشق حيث توفي بعد سنتين، وسأختار شاهدين لنرى من خلالهما كيف انعكست وتجلت أنوار قيادة محمد ﷺ من بعيد على صلاح الدين.

لنأخذ المبدأ القرآني المتعلق بالاعتدال والتوسط (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا) (القرآن الكريم، السورة 17 الآية 29)، لقد عرف أرسطو أيضاً قاعدة (خير الأمور أوسطها)، وقد أطلق الرومان على تلك القاعدة: الوسط الذهبي. *The golden mean*.

لم يكن صلاح الدين مُفرطاً في الجرأة، كما لم يكن مبالغاً في الحذر والحرص على حياته، وكان يحرص على التوازن الصحيح بين الأمرين.

يخبرنا أحد كتاب سيرة صلاح الدين ممن عرفوه جيداً، أنه كان قبل المعركة يتفقد الجيش جيئةً وذهاباً، من الجناح الأيمن إلى الأيسر، مقوياً في الجيش روح الجماعة والشجاعة والإقدام في الوقت المناسب، وعندما يلتقي الجيشان وتحتدم المعركة، كان يقوم بدوره القيادي بين صفوف قواته، وتحت نيران القذائف والسهام، لا يرافقه إلا سائس وحصان احتياطي.

لاحظوا أنه كان في منطقة الخطر، ولكن من غير أن يجازف بحياته بتهور، من خلال الاشتباك في قتال مباشر، فذلك ليس عملاً مناسباً للقائد.

هكذا كان يبث في جنوده الثبات والطمأنينة معاً، من خلال وجوده بينهم ومشاركته لهم في التعرض للخطر. لقد كان حضوره مُلهماً لجنوده ومبعثاً لروح الأمل فيهم، والقائد لا يفعل ذلك إذا كان ميتاً.

خلال هدنة طويلة تحاور صلاح الدين مع هربرت والتر، أسقف سالزبري، الذي كان في رحلة حج في ذلك الوقت، وكان صلاح الدين قد لاحظ سلوك الملك ريتشارد وأعجب بشجاعته، كان ريتشارد أصغر بعشرين سنة من صلاح الدين، وكان يرمي بنفسه في أتون المعركة، فأرسل له صلاح الدين نصيحة شخصية مع الأسقف ينصحه قائلاً: لا تعرض نفسك للخطر هكذا دونما ضرورة، ولا تفرط بحياتك.

لم يُصغِر ريتشارد للأسف، ولم يكن مُقدِّراً للقائدين أن يلتقيا، وفيما بعد، وخلال حصار في فرنسا، دفع ريتشارد ثمن عدم إصغائه لأستاذ في فن القيادة، فقد ألقى بنفسه في الخطر بلا ضرورة، فأصيب بسهم، ومات متأثراً بجراحه، كان في الثانية والأربعين فقط.

كانت نصيحة صلاح الدين لخصمه الشاب نابعة من حسن النية، مما يدل على شهامته وسمو نفسه وأخلاقه.

وأصبحت القدس مرة أخرى بأيدي المسلمين، وخلال هدنة عامي 1191-1192، كان صلاح الدين مشغولاً في تقوية دفاعات المدينة، (والتي يشير اسمها العربي -القدس- إلى معنى قداسة المكان)، فكان يغادر المعسكر قبل وقت الفجر ولا يعود أحياناً إلا في منتصف الليل، يحتاج القادة إلى أن يكونوا بكامل طاقتهم.

أشرف صلاح الدين بنفسه على أعمال البناء، حتى حمل الحجارة على كتفيه، والجميع فعل مثله، الأغنياء والفقراء، لقد مارس صلاح الدين القيادة من المقدمة، كما فعل محمد ﷺ من قبل.



كان عبد اللطيف البغدادي⁵⁹ عالماً بالطب، وكان مع صلاح الدين في ذلك الوقت، ويتذكره كيف كان يصغي بسرور إلى محاورات العلماء ويشارك فيها: (رأيت ملكاً عظيماً يملأ العين روعة والقلوب محبة، قريباً بعيداً، سهلاً محبباً، وأصحابه يتشبهون به يتسابقون إلى المعروف كما قال تعالى 'وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ' [سورة الأعراف: 43] وأول ليل حضرته وجدت مجلساً حافلاً بأهل العلم يتذكرون في أصناف العلوم، وهو يحسن الاستماع والمشاركة، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ويتفقه في ذلك، يحمل الحجارة على عاتقه، ويتأسى به جميع الناس الفقراء والأغنياء، والأقوياء والضعفاء، ويركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهر، ويأتي داره ويمد الطعام ثم يستريح ويركب العصر، ويرجع في المساء، ويصرف أكثر الليل في تدبير ما يعمل نهاراً⁶⁰).

.. وهذا بهاء الدين، أحد مستشاري صلاح الدين⁶¹، يعطي رأياً موافقاً: كان أميرنا طيب القلب، تبدو الطيبة في وجهه، شديد التواضع، في غاية الدماثة.

كتب صلاح الدين قبل وفاته يوصي ابنه الذي سيتولى الحكم لأول مرة، وتوضح لنا كلمات الوصية معالم فلسفة القيادة عند صلاح الدين:

59 موفق الدين محمد عبد اللطيف البغدادي المعروف بابن اللباد، طبيب وعالم موسوعي. (557-629 هـ / 1162-1231 م)

60 طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة.

61 هو أبو المحاسن بهاء الدين، يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة الأسدي الموصلية، المشهور بابن شداد، وهو مؤرخ صلاح الدين، واسم كتابه (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية).

احذر من الدماء والدخول فيها، لا تقتل بالشبهة، لا تقتل بدون سبب، لا تقتل دون حاجة، فإن الدم لا ينام، أو صيك بحفظ قلوب الرعية، والنظر في أحوالهم، والاهتمام بهم دائماً، فأنت أمين وأمين الله عليهم. لا تحقد على أحد، فإن الموت لا يبقى على أحد، واحذر ما بينك وبين الناس، فإنه تعالى لا يغفر إلا برضاهم، لا تظلم أحداً فإذا ظلمت فإنه لا يغفر لك إلا إذا عفا عنك صاحب الحق، أما ما بينك وبين الله، فإن الله واسع المغفرة، وكريم لا يخذل الثائنين.

عندما توفي صلاح الدين في 3 مارس 1193 في دمشق، حيث يوجد قبره الآن، كتب عبد اللطيف البغدادي عنه: كل الناس حزنوا عليه كما يحزنون على الأنبياء، لم أر حاكماً آخر تفجع عليه الناس مثله، ذلك لأن الجميع أحبوه: الأخيار منهم والأشرار، المسلمون وغير المسلمين على السواء.



بعد حوالي 200 سنة من وفاة صلاح الدين، اجتاحت تيمورلنك وجيشه (المكون من المغول والترك) مساحات واسعة شملت بلاد فارس وسوريا وشمال الهند، وكانت عاصمته سمرقند، ولكنه مات بعيداً عنها أثناء اجتياحه للصين، ومن ورثته تشكلت سلالة المغول الحاكمة في الهند.

وخلال حصاره لدمشق سنة 1400 سمع تيمورلنك بأن فيها العالم المسلم الشهير ابن خلدون، المؤرخ والفيلسوف الفذ، كان قد جاء إلى دمشق مع سلطان مصر، الذي دعاه لمرافقته في حملة عسكرية لفك الحصار عن دمشق.

وكان قد أرسل ضمن مجموعة من المبعوثين للتفاوض مع قائد المغول، وبالمحصلة وجد نفسه عالقاً في المدينة مع أهلها الجياع،

وفي نهاية الأمر أرسل تيمورلنك رسالة، يُعرب فيها عن رغبته في استقبال ابن خلدون، الذي اجتاز أسوار المدينة العالية، بواسطة سلة، ثم وصل إلى خيمة تيمورلنك، حيث أمضى ستة أسابيع في مخيم المغول، وهو يناقش مجموعة من المواضيع مع تيمورلنك، ذكرها لاحقاً في ترجمته، مع موجز مركز عن شخصيته، قال فيه:

(وهذا الملك تيمور من زعماء الملوك و فراعتهم، والناس ينسبون له إلى العلم، وآخرون إلى اعتقاد الرفض، لما يرون من تفضيله لأهل البيت، وآخرون إلى انتحال السحر، وليس من ذلك كله في شيء، إنما هو شديد الفطنة والذكاء، كثير البحث واللجاج بما يعلم وبما لا يعلم.) لاحظوا النظرة الموضوعية والمعتدلة لمفكر ثاقب النظر.

وفي عمله العظيم: تاريخ العالم، البالغ سبع مجلدات، يبدأ ابن خلدون بعبارة مثيرة حول الغاية من كتابة التاريخ:

(إن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وتُشدُّ إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوق والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، وتتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأولى. وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخلق).

يركز ابن خلدون في دراسته على الناس، وهو يتابع آراء العلماء اليونان في تركيزهم على أثر البيئة، بالمعنى الفيزيائي، على الإنسان، وأما تأثير الله على قضايا الإنسان، فهو يتركز في الأمور الخارقة للعادة، كالتدخل من خلال النبوات، والتي كان أهمها رسالة الله إلى

الإنسانية، من خلال محمد ﷺ.

يخبرنا ابن خلدون أن (الاجتماع ضروري للنوع الإنساني وإلا لم يكمل وجودهم)، وهكذا تنشأ الحضارة (ال عمران)، وتتخذ الحضارات أشكالاً مختلفة بحسب اختلاف بيئتها: من البداوة، أو حياة الصحراء، وحياة الحضرة.

وفيما يتعلق بأهل البداوة سكان الصحراء، يبدو ابن خلدون متردداً، فمن ناحية يقول عن البدو أنهم أكثر الناس وحشية في العالم، فيمارسون السلب ويحدثون الأضرار، ويفضلون فعل ذلك دون أن يكونوا بحاجة للقتال أو تعريض أنفسهم، ومن الجهة الأخرى فإنهم أقرب إلى الخير من أهل الحضرة.

كان الحجاج الغربيون، الذين يقصدون الأرض المقدسة، لم يروا في البدو إلا الجانب الفظ والضرار، كالحالة الحاج السير جون ماندفيل⁶² الذي كتب في مذكراته عام 1322 (قبل عشر سنوات من ولادة ابن خلدون): (في خلال إقامتي في الصحراء كان هناك الكثير من العرب الذين يطلق عليهم اسم البدو، إنهم أشداء ومولعون بالحرب، شريرون وبشعون، وذوو طباع رديئة) لم يجد كلمة واحدة حسنة يقولها عن البدو.

ولكن في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بدأ الرحالة الإنكليز يكتشفون الصحراء العربية، وعاشوا بين البدو، ورأوا الجانب الآخر الذي تحدث عنه ابن خلدون.

يتابع ابن خلدون كلامه عن البدو فيقول: (أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضرة)، وإن صفات قادتهم التي (استحقوا بها أن يكونوا ساسة لمن تحت أيديهم) هي انعكاس للأخلاق الحميدة لرجال القبائل، والتي منها (الكرم والعفو عن الزلات، والاحتمال من

62 السير جون ماندفيل John Mandeville رحلة إنكليزي من القرن الرابع عشر.

غير القادر، والقرى للضيوف، وحمل الكل، وكسب المعدم، والصبر على المكاره، والوفاء بالعهد، وبذل الأموال في صون الأعراض، والتجافي عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد).

لاحظوا أن قيادة البدو لم تكن أمراً سهلاً، فلم يكن من طبيعتهم العمل ضمن الفريق، ويغلب على طبيعتهم التفرد والتميز في الشخصية، فهم (متنافسون في الرئاسة وقل أن يُسلم أحد منهم الأمر لغيره، ولو كان أباه، أو أخاه، أو كبير عشيرته).

قد يقول البعض إن هذه الطبيعة في العرب (أن كل منهم يريد الرئاسة، وافتقارهم بالتالي إلى روح العمل ضمن فريق) قد استمرت حتى يومنا هذا.

إذا خرج العربي من الصحراء فإن الصحراء لن تخرج منه. لاحظ ابنُ خلدون كيف استطاع الإسلام أن يغير طبائع البدو، كالفاظظة والفخر والطموح للقيادة، فعندما يوجد عندهم دين، فإن صفات العجرفة والأنانية تزول منهم، ولكن رجال القبائل البدو، يحتاجون لنوع خاص من القيادة، فقائدهم غالباً ما يكون بحاجة إليهم، لتحقيق روح الجماعة اللازمة لأغراض دفاعية، وبالتالي فإنه مضطر لأن يقودهم برفق حتى لا يثير عداوتهم، وإلا فإنه سيواجه مشكلة مع روح الجماعة، وستكون النتيجة فشلاً له ولهم.

يعتبر ابن خلدون أن التعاون بين الناس مبدأً أساسياً فُطروا عليه، وحتى ينجح التعاون فإن روح الجماعة "العصية" هي أمر رئيسي، وكلما زادت عصبية الجماعة زاد تفوقها على غيرها، والقادة الذين يتمكنون من التحكم بها لتحقيق أفضل النتائج، سيتغلبون على منافسيهم، وسوف يؤسسون دولاً وأسر حاكمية جديدة.

ولكن التاريخ يُظهر لنا، كما يقول ابن خلدون، أن النجاح يُنتج في النهاية رفاهية وانحلالاً في المجتمعات الحضريّة، حيث تضعف العصبية، ويصبح العالم المتحضر عرضةً لأولئك الناس المعتادين على عالم البداوة، والذين تحكمهم عصبية أقوى.

لا شك أن هذه كانت من بين المواضيع التي ناقشها ابن خلدون مع تيمورلنك، قائد جحافل البدو ومدمر المدن.

وهكذا فإن تاريخ السلالات الحاكمة ينتقل في دوائر.

لا توجد كلمة في اللغة الإنكليزية مرادفة لكلمة عصبية، إنها تعبر عن تماسك الجماعة، وروحها، وهويتها، ومعنوياتها، وثقتها بنفسها، وانضباطها، وطموحاتها، في الحقيقة: كل شيء يجعل المجموعة ككل أكثر من مجموع أفرادها، وكل ما يعطي الجماعة وجهتها ويدفعها ليسط سيطرتها.

وكما رأينا، فإن ابن خلدون يولي مسألة القيادة أهميتها، ولكنه يشدد كثيراً على (الجماعة) وازدياد قوتها أو انحسارها، أكثر من تركيزه على قيادة القائد. لا يستطيع القادة أن يحافظوا على تأثيرهم إذا فقد الناس عصبيتهم الأولى. بإمكانكم أن تتفهموا لماذا اعتبر بعض الكتاب الغربيين ابنَ خلدون أباً لعلم الاجتماع.

لا شك أنه بإمكاننا أن نبالغ في التأكيد على دور أي قائد محدد، أو مجموعة قادة، في نجاح مجموعة معينة. ولكن القيادة تمثل عنصراً واحداً، مع أن أهميته ظاهرة بشكل واضح.

عشرة جنود بقيادة حكيمة يهزمون مائة من دون رأس (قائد)

يوربيديس⁶³

هذا صحيح، ولكن بإمكان المرء أن يناقش من خلال أعمال ابن خلدون، بأن عصبية الجنود العشرة، فضلاً عن تدريبهم ومهارتهم، تلعب دوراً لا يقل أهمية عن دور القائد الذي قادهم من المقدمة.

63 شاعر مسرحي تراجيدي، توفي 406 قبل الميلاد.

في معركة بدر، عندما قاتل ثلاثمائة مسلم، ألفاً من جنود مكة، وانتصروا عليهم، فعلوا ذلك ليس فقط بفضل القيادة الجيدة، وإنما بفضل إيمانهم بالله الذي ميّزهم على خصومهم. وحتى يحافظ القادة على تواضعهم، يجب عليهم أن يتذكروا المثل الاسكتلندي: الجماعة دائماً أعظم من الرئيس. وهذا يقوي فكرة أنك كقائد، يجب أن تخدم جماعتك أو منظمتك، لا أن تفرض عظمتك عليهم، وإنما أن تُظهر وتحدد ملامح عظمتهم.

يمكننا أن نعتبر ابن خلدون رائد علم النفس الاجتماعي، مع أن ذلك قد يبدو غريباً، علم نفس الجماعات مقابل الأفراد، إن الجماعات التي تعمل في هذا المجال اليوم، يُنظر إليها كوحدة كاملة أكثر منها مجموعة من الأجزاء.

إن الجماعات، مثل الأفراد، إذا كانت متحدة، فإنها تطوّر شخصية جماعية متميزة، ولكنها تتشارك في المكونات. لقد قادني دراسة المكونات العالمية في الجماعات، إلى اكتشاف الدور العام للقائد، وسأدعكم مع عرض موجز لتلك المقاربة.

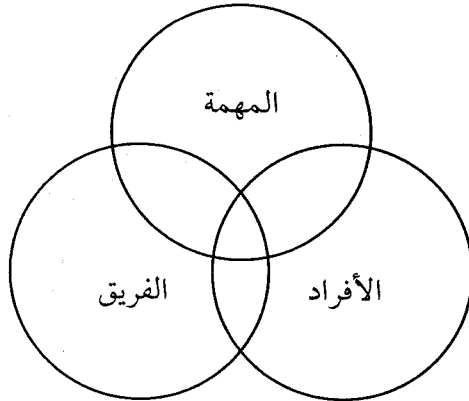
الاكتشاف الذي أتحدث عنه هو ببساطة: إنه في كافة المجموعات العاملة، توجد ثلاثة أنواع من الحاجات، التي تقودنا في النهاية إلى تحديد مفهوم عالمي لدور القائد، وهي:

- الحاجة إلى إنجاز المهمة العامة للمجموعة
- الحاجة إلى حفظ وحدة المجموعة كفريق متماسك.
- الحاجات الخاصة بأفراد المجموعة، والتي تنشأ داخل المجموعة نتيجة لكونهم أفراداً من المجموعة.

وكما يقول المثل الصيني: الصورة تساوي ألف كلمة، (انظر الشكل

8.1)، قد تحب أن تستكشف بعض التفاعلات الممكنة: إذا وضعت قطعة نقدية فوق دائرة (المهمة) في الشكل (8.1) فإنه سوف يغطي مباشرة قسمًا من الدائرتين الآخرين أيضاً، بعبارة أخرى: إن أي نقص أو قصور في تحقيق المهمة سوف يؤثر على حماية المجموعة (زيادة في حدوث المشاكل) وعلى حاجات الأفراد (تخفيض درجة رضا أعضاء المجموعة)، حرك القطعة النقدية نحو دائرة (الفريق)، وسوف تلاحظ مباشرة الأثر شبه الكامل للعلاقات في المجموعة على دائرتي (المهمة) و (الأفراد).

وبالعكس، فعندما تحقق المجموعة مهمتها، فإن درجة تماسك المجموعة ورضائها بالانتماء، سوف ترتفع، وسوف يحدث تحسن على المستوى الفردي والجماعي، وإذا حصل انسجام عال بين أعضاء المجموعة، ووجدوا أنهم يستطيعون أن يعملوا كفريق متجانس، فإنهم سوف يزدون من أدائهم العلمي، كما سيوفرون بعض الاحتياجات الهامة التي يحتاجها بعض الأفراد في المجموعة. توضح لنا هذه الدوائر الثلاثة المتداخلة، النقطة الأساسية: إن كل دائرة من الاحتياجات تمارس تأثيراً على الدائرتين الآخرين، فلا تعمل كل دائرة كجزء مستقل.



الشكل 8.1 دوائر الحاجات المتداخلة

من الواضح أنه من أجل أن تحقق المجموعة هدفها، وأن تبقى متماسكة كفريق، فهناك عناصر معينة ينبغي تحقيقها، وأعني بكلمة (عنصر) في هذا السياق: أي تصرف بالكلام أو بالفعل يحقق مجالاً أو أكثر من الحاجات، أو أجزاء من مسئوليات القيادة، كما يمكن أن نسميها.

تعريف الهدف، التخطيط، التحكم، التقييم، الدعم والتشجيع للمجموعة، تلك بعض الأمثلة على ما أعنيه بكلمة (عنصر) في هذا السياق. الجودة هي ما أنت عليه، العنصر هو ما تفعله، وكل عنصر بالإمكان تحقيقه بخبرة أكثر أو أقل.

الرؤية بدون مهمة مجرد حلم،
والمهمة بدون رؤية هي عمل شاق،
وما يغير العالم هو الرؤية مع العمل.

جول باركر

يتركز دور القائد بشكل رئيسي في المسئولية نحو هذه الوظائف الضرورية. ولكن هذا لا يعني أن على القادة فعل كل شيء بأنفسهم، فهناك الكثير من المهام في المجموعة، أكثر مما يمكن أن يؤديه شخص واحد، والقائد الجيد يعامل أعضاء الفريق كقادة لحسابهم الخاص، ويكون هو (أو هي) قائد القادة.

خذوا على سبيل المثال مسألة اتخاذ القرار، فالمبدأ العام يقول إنه من الأفضل أن تشارك فريقك في اتخاذ القرارات، لأن الذين ساهموا في اتخاذ القرار سيشعرون بالتزام أكبر نحو تنفيذه، ولكن ثمة عوامل طبيعية يمكن أن تحدد إلى أي مدى يمكنك الذهاب: كنقص الوقت، ومدى المعرفة، وخبرة المجموعة أو الأفراد. لماذا تتقبل الجماعة شخصاً ما كقائد، أكثر من شخص آخر؟ نحن الآن نمتلك جواباً عملياً على هذا السؤال الجوهري:

فالقائد هو ذلك الشخص الذي يمتلك المعرفة والصفات المناسبة، والتي تتجاوز النواحي الفنية والاحترافية، والذي يقدر على تأمين الوظائف الضرورية، لتمكين الفريق من تحقيق مهمته، والمحافظة على الفريق متماسكاً كوحدة عاملة. وهذا كله لا يتحقق بواسطة القائد وحده، وإنما من خلال المساهمات والتعاون الإيجابي من كافة المعنيين.

من المفيد أن نميز بين أمرين: المنظمة والمجتمع، رغم أن كليهما نتاج لسعي البشر إلى إحلال النظام مكان الفوضى، فالمجتمع ينشأ من العائلة، مجموعة من الأقارب، أو قبيلة، ويكون لهم نظام من خلال قبولهم بقانون عام ونوع من الحكومة، وتأتي دُولنا القومية ضمن هذا الصنف.

وفي المقابل، فإن المنظمات عبارة عن جماعات، تتشكل وتتطور من خلال نمط معين من العمل، أو بالمعنى العام: مهمة ما. وأخيراً فإنه من المهم، أن نضع في حسابنا، أن القيادة تتم على مستويات مختلفة:

- على مستوى الفريق: قائد لفريق من حوالي عشرة إلى عشرين شخص مع مهمات محددة بوضوح ينبغي تحقيقها.
- على مستوى العمليات: القائد لأحد الأقسام الرئيسية للمنظمة، وتحت قيادته أكثر من قائد فريق، بمعنى أنه قائد للقادة.
- على المستوى الاستراتيجي: قائد للمنظمة بالكامل مع وجود عدد من قادة العمليات تحت إشرافه الشخصي.

إن نجاح المنظمة في عملها يكمن في وصفة بسيطة: أن يوجد قادة فعالون، يشغلون تلك الأدوار، ويعملون معاً بانسجام كفريق واحد. هذا أمر سهل جداً أن نقوله، ولكنني لست ألمح هنا إلى أنه من السهل تحقيقه، أو المحافظة عليه، تحت ضغوط الحياة اليوم.

لقد عرضتُ فيما سبق دورَ القائد بشكل عام، إنه ببساطة: ما يتوقعه الناس (في كل زمان ومكان) من قاداتهم.

مع أنه جاء في القرآن أن الله هو الذي وَّحد المؤمنين (أَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ) فإن محمداً ﷺ قد عمل بجد لتحقيق ذلك أكثر من أي قائد آخر، لقد مكن المجتمع الإسلامي من العيش والعمل بانسجام، وتوحد تحت قيادته المهاجرون والأنصار، حتى صاروا كياناً واحداً يُسمَّى (صحابة النبي) وأعطى كلَّ شخص منهم أملاً جديداً، بأن حاجاته سوف تتحقق، إما في هذه الحياة أو في الآخرة.

إننا بحاجة لقادة يُلهمون شعوبهم كما فعل محمد ﷺ ولكن الإلهام غالباً ما يكون متبادلاً، فبدلاً من التفكير بقيادة يصنعون جماعات أو مؤسسات حسب تصوراتهم، ينبغي أن نفكر الآن بمؤسسات أو مجتمعات وأمم تنشُد قادة على مستوى توقعاتها، يشاركونهم قيمهم وآمالهم.

كما تكونوا يولى عليكم

مثل عربي⁶⁴

نقاط رئيسية

- قد تُعيّن حاكماً أو مديراً، ولكنك لن تصير قائداً حتى يصادق الناس على تعيينك بقلوبهم وعقولهم.
- التبادلية قاعدة أساسية في كل العلاقات الشخصية والاجتماعية، فما تقدمه بصفتك قائداً سوف تكون معنياً بتلقيه واستلامه.
- كما في المثل العربي: من يريد أن يكون محبوباً عليه أن يبدأ بنفسه فيكون محباً.
- القائد الجيد يتبعه الناس في الشدة والرخاء لأن عندهم ثقة في شخصه وقدرته ومعرفته لعمله، ولأنهم يعلمون أنه يهتم بهم.
- ينبغي أن تتوفر في القادة الصفات العامة للقيادة: الحماسة والاستقامة والصلابة والكياسة والمرونة والعاطفة الإنسانية والتواضع، وذلك بمعزل عن كونهم يمثلون قيم وخصائص المجموعة التي يقودونها.
- تتأثر القيادة بمحيطها وطبيعة المجال الذي تعمل فيه: فاختلاف مجالات العمل يستدعي قادة مختلفين، فالقائد يحتاج للخبرة والمعرفة الضرورية، والسلطة تتجه نحو من يمتلك المعرفة.
- ترشدك الدوائر الثلاثة المتداخلة إلى دور القائد الأساسي، ويمكنك دائماً أن تحسّن مهاراتك من خلال أداء المهمات اللازمة، فالقيادة مسألة ممارسة في الأساس، قم بأداء دور القائد، وسوف تتحسن ملكاتك تلقائياً.

ما يفعله الإنسان، يحدد ماذا سيكون عليه

مثل إسباني

64 يُروى كحديث نبوي ولكن إسناده ضعيف جداً.

الخاتمة

كل قارئ يختلف عن الآخر، وقد كتبت هذا الكتاب لأجلك شخصياً، وآمل أن تكون قد استمتعت به، والآن أدعوك لتستخرج منه كل لآلئ الحكمة؛ وحوافز العمل؛ التي تحتاجها، فأنت وحدك الذي يعلمها، والطريق ممهدة أمامك، وكما قلت سابقاً أكثر من مرة؛ فإنه - وبفضل البحث الطويل من أجل الحقيقة - فإنه يوجد لدينا الآن قدر من المعرفة العالمية عن القيادة وتطورها.

نحن نعلم ما هو المفهوم العام الأساسي لمصطلح 'القائد'، ويمكننا أن نكسوه لحماً ودماً من خلال الثقافات الثلاث الكبرى: الثقافة الغربية، بدءاً من سقراط، والثقافة الشرقية التي يمثلها كونفوشيوس، والثقافة القبلية التي وصلت إلينا بشكل رئيسي من خلال الحكم والأمثال، وقد كان هذا الكتاب عن القيادة في الثقافة القَبَلِيَّة، وخير من يمثلها بشكل دقيق؛ القبائل البدوية في الجزيرة العربية.

لقد كان محمد ﷺ ابن المجتمع البدوي، ولكنه تجاوزه وتسامى عليه، كما رأينا.

إن مفهوم القيادة في الثقافة الإسلامية - إذا كنت قد فهمته - قد تفوق على الثقافات الإنسانية الكبرى الثلاثة التي ذكرتها. فالقيادة في الإسلام تبلغ في ذروتها المثل الأعلى النبيل السامق الذي يوجب على كل القادة - رجالاً أو نساء؛ صبياناً أو بنات - أن تظهر فيهم آثار صفات الله، وبحسب القرآن فإنه على المسلمين أن يعملوا من أجل أن يعكسوا من خلال أسلوب حياتهم؛ وخصوصاً قيادتهم؛ تلك الصفات في العالم، مثلما يعكس القمر نور الشمس.

إذا كنت تنتمي إلى الحضارة الإسلامية، فإن هذا يمكن أن يفتح لك الطريق الذي يمكنك أن تتطور فيه لتصير قائداً جيداً يعمل من أجل الخير.

في الفكر الإسلامي يوجد جسر يربط بين العقيدة والفلسفة، ذلك الجسر الذي مكّن العلوم الإسلامية؛ علوم الرياضيات والتاريخ؛ أن تزدهر في العصور الوسطى. ذلك الجسر هو بالطبع مفهوم الحقيقة، لأن الحقيقة هي الحقيقة، سواء عُرفت من خلال التأمل في أسماء الله أو من خلال دراسة الطبيعة البشرية والحياة الاجتماعية، وتلك هي الطريق التي سلكتها. ولذلك فإن الإسلام اليوم هو وريث المعرفة العالمية عن القيادة، وهو أيضاً مساهم عظيم فيها، كما يبيّن في هذا الكتاب. كم مرة كان على محمد أن يذكر الناس بأنه بشر؟ بعبارة أخرى أنه ابن زمانه وعصره، مع كل ما يستلزمه ذلك، مثلما أنا وأنتم هنا الآن في زماننا ومكاننا، فينبغي أن نعيش عصرنا مثلما عاش محمد ﷺ في عصره. ما أعتقد أنه هو أننا؛ مع اختلافنا؛ مثل كل من في هذا العالم؛ نستطيع أن نتعلم القيادة، مثلما تطور محمد ﷺ كقائد. حقاً إن القيادة ترتبط بالتعلم. إنك لا تولد قائداً؛ وإنما تصير قائداً. إن الوقت لكي تتعلم لا يفوت أبداً. ولكن من الحكمة أن تسرع في بدء رحلتك لتتعلم القيادة، كلما أسرعت كان أفضل لك وللذين كُلفت بقيادتهم.

العلم في الصغر كالنقش على الحجر،
والعلم في الكبر كالكتابة على الرمل.

مثل عربي.



قبل أن نفترق، هناك خاتمة أخرى أود أشارككم بها، رغم أنها ليست وثيقة الصلة بموضوع هذا الكتاب.

إنها لن تكون مفاجأة لك إذا كنت مسلماً، وهي: إن الإسلام هو دين الحب!

قد تتضمن كلمة (دين) في اللغة الإنكليزية معاني التقوى والورع، ولكنها تؤكد أكثر على الإيمان بالله؛ والالتزام بمنهج حياة يتوافق مع الإيمان. إن صفات الله؛ في أي ديانة؛ هي التي تحدد القواعد الأخلاقية فيه.

والقرآن يعلن في مئات المواضع أن الله غفور ورحيم وكريم (الآية 40 من السورة 27) وودود (الآية 90 من السورة 11)، وكل سورة من القرآن تبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم. لذلك فإن منهج الحياة الذي يعكس الطبيعة الدينية للمسلم الحقيقي هو منهج الحب. في (الآية 82 من السورة 5) إن أكثر الناس مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى. قال الملك عبد الله، ملك السعودية⁶²، معبراً عن هذا المبدأ القرآني الجوهري:

الأديان كلها منزلة من الرب عز وجل، ويحثنا الرب عز وجل على التأخي والتآلف وعمل الخير للعاجز والفقير والمحتاج والمريض وهذه كلها طرق إنسانية، وأعتقد أنكم وغيركم إن شاء الله تحثون على محبة الإنسان لأخيه الإنسان

لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ

محمد ﷺ

موجز عن حياة محمد ﷺ

ولد محمد ﷺ سنة 570 م وكان أبوه عبد الله تاجراً متواضعاً، ولكنه من عائلة شريفة، من قبيلة قريش القوية؛ التي ورثت شرف الوصاية على الحرم المقدس في مكة.

وُلد محمد يتيم الأب، وفي سن السادسة ماتت أمه، وكفله جده عبد المطلب ثم عمه أبو طالب، وعمل أولاً في رعي الغنم، ثم في قيادة القوافل التجارية، وفي سن الـ 24 عمل في تجارة خديجة، الأرملة الثرية، ثم تزوجها، وقد أنجبا ستة أولاد. لم يعيش أحد من الذكور، أما البنات فكان منهن أم كلثوم وفاطمة اللتان تزوجتا من عثمان وعلي؛ الذين صاروا فيما بعد الخليفين الثالث والرابع.

وخلال عمله كقائد لقافلة خديجة التجارية، كان محمد ﷺ يميل إلى التأمل الديني بشكل متزايد، وفي سنة 610 كان يخلو في جبال مكة للتعبّد، حيث الهواء النقي العارم، والصخور المترامية في كل الاتجاهات، وروعة منظر الفجر والغروب، وأنوار النجوم الجميلة في الليل، والصمت والسكون العميق، وفي إحدى الليالي بينما كان محمد ﷺ في غار حراء، ملتحفاً بردائه، التقى بجبريل وتلقى أول وحي إلهي (القرآن السورة 96 الآيات 5-1) حسبما جاء في القرآن. كان الوحي يأتيه أحياناً مثل صلصلة الجرس؛ أو يتمثل له الملك رجلاً؛ أو ينفث في روعه؛ وكان الوحي يأتيه من خلال الملاك جبريل، مثلما كان يحصل مع أنبياء التوراة، والله أعلم، وقد يقول البعض إنه كان يسمع الوحي من خلال عقله الباطن بما يشبه الإلهام الذي يحدث مع الشعراء والملحنين، ولكن محمداً ﷺ نفى تماماً أن يكون شاعراً.

جُمع هذا الوحي لاحقاً بشكل مكتوب في القرآن، وقد أمر القرآنُ بتحطيم الأصنام الكثيرة التي كانت قائمة داخل الكعبة وحولها، كما أمر الأغنياء بإبداء مزيد من السماحة تجاه الفقراء، وقد جذبت هذه الدعوة البسيطة بعض المؤيدين، ولكنها أثارت قدراً كبيراً من العداوة عند الذين شعروا أنها تمثل تهديداً لمعتقداتهم وتقاليدهم، وربما مصالحهم التجارية.

بعد وفاة خديجة وأبي طالب فقد محمد ﷺ مساندة زوجته وحماية عمه وعشيرته، وكان عدد من مؤيديه قد هاجروا لاجئين إلى الحيشة، ثم إن عدداً من أهل يثرب - 350 كيلومتر شمالاً - اعتنقوا الإسلام أثناء حجهم إلى مكة، وفي سنة 622 قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ عرضهم بتوفير النصرة والحماية له، بعد أن أصبح الخطر مُحْدِقاً به في مكة، فهاجر إلى المدينة، وكانت تلك الهجرة بداية للتاريخ الإسلامي.

كان أهم قرار بالنسبة لقادة المجتمع المسلم الجديد الناشئ المؤلف من المهاجرين والأنصار، هو قرار الحرب ضد أعداء الإسلام الظاهرين والكامنين، بدءاً من المشركين من أهل مكة.

في عام 624 انتصرت قوة صغيرة من المسلمين على جيش صغير من أهل مكة في بدر، وبعد سنة تقريباً كاد محمد أن يُقتل في معركة أُحُد مع العدو نفسه، وفي سنة 627 نجا المسلمون من حصارٍ فرضه أهل مكة على المدينة، وفي سنة 629 استطاع محمد ﷺ أن يسيطر على مكة التي اعترفت به كفائد ورسول من عند الله، وخلال السنتين التاليتين توسعت سلطته حتى شملت معظم شبه الجزيرة العربية، وفي مارس من سنة 632 حج محمد إلى مكة حجة الوداع، ومن جبل عرفات ألقى خطبة الوداع وثبت شعائر الحج بشكل نهائي ودائم.

مرض محمد ﷺ بعد عودته إلى المدينة وتوفي في الثامن من يونيو، وكان ذلك في بيت عائشة، المفضلة من بين زوجاته التسع، وابنة أبي بكر الذي كان أول أتباعه. وقبره موجود في مسجد المدينة يحظى باحترام المسلمين.

صار أبو بكر الخليفة الأول، ثم تبعه ثلاثة من أوائل الصحابة: عمر وعثمان وعلي.



إن أقدم مصدر مكتوب عن الإسلام هو القرآن الذي تم تحديده بشكل حاسم ودقيق في خلافة عثمان (644-656) م. تتوفر مصادر للأحداث التاريخية كمعارك بدر وأُحُد وحُنين، ولكنها ضئيلة، وما فيها عن محمد ﷺ قليل نسبياً.

ظهرت أول كتب في السيرة بعد حوالي مائة عام، وأشهرها سيرة ابن اسحاق (توفي 767)، ومن أهم قدماء المؤرخين الواقدي، وكتابه (المغازي) يسجل الروايات عن مشاركة مُحَمَّدٍ ﷺ في 28 معركة من أصل 70 معركة حصلت في السنوات العشر الأخيرة من حياته.

اشتهر العرب بقوة الذاكرة والحفظ بشكل استثنائي، ولكن تناقل الروايات شفهيّاً لمدة طويلة من الزمن جعلها عرضةً للتحريف والدس أو إضافة تفاصيل من قبل القصاص الموهوبين ذوي الخيال الواسع يملئون بها الفراغات.

ولذلك فإنه من الحكمة أخذ الحذر، وقد اعتمد المؤرخون على معرفتهم وخبرتهم المهنية وحدسهم، أما بالنسبة للحديث - أي الروايات التي تنسب إلى مُحَمَّدٍ من قول أو عمل - فقد بُذلت محاولة دقيقة لتصنيفها كاللآلئ وفقاً لشروط الصحة، منذ خلافة عمر بن عبد العزيز الذي حكم بين 717-720، حيث شكّلت الأحاديثُ إلى جانب القرآن أساساً شريعة الإسلام، ويبلغ عدد الروايات المنسوبة للنبي ﷺ حوالي 650.000 أكثرها لا يستوفي شروط الصحة.

يتألف الحديث المقبول من قسمين: النص الأساسي وسلسلة الرواة، ويجب أن يكون الأول في سلسلة الرواة من أصحاب مُحَمَّدٍ ﷺ ممن اعتنقوا الإسلام في أوقات مختلفة ورافقوا محمداً ﷺ

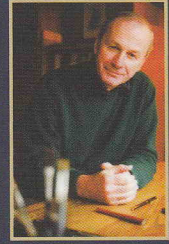
عن قرب، وجمهور العلماء يعتبرون أن كل مسلم عاصر محمداً ورآه
ولو لبرهة وجيزة فهو صحابي .

أشهر كتب الحديث هما البخاري ومسلم، وإذا وُجد الحديث
في كليهما فهو على درجة عالية من الصحة.

مع السلامة

جون أدير، أحد أهم الاستشاريين في مجال القيادة والتدريب على فنون القيادة وتنمية المهارات القيادية في العالم. وقد التحق في دوراته التدريبية أكثر من مليون شخص ممن يعملون في مجال الإدارة من جميع أنحاء العالم.

في بداية حياته المهنية، مارس جون أدير العديد من الأعمال المختلفة. إذ قام بالخدمة العسكرية كقائد فصيلة في الحرس الاسكتلندي في مصر، ليصبح بعدها معاوناً لقائد فوج البدو في الفيلق العربي.



بعد ذلك أصبح جون أدير المحاضر الأبرز في مجال التاريخ العسكري، ومستشاراً في التدريب على القيادة في أكاديمية ساند هيرست الملكية العسكرية، وأصبح جون في عام 1979 الأستاذ المحاضر الأول للدراسات القيادية في جامعة ساري.

كتب جون أكثر من 50 كتاباً تمت ترجمتها إلى العديد من اللغات. من إصداراته الأخيرة، كتاب بعنوان: "صناعة القياديين" و"قادة لا مدراء". وبالإضافة لكونه كاتباً فهو أستاذ وخبير استشاري.

يحمل جون شهادة الماجستير في الآداب من جامعة أكسفورد، وشهادة الدكتوراه في الفلسفة من كلية كنف في لندن، هذا بالإضافة لكونه زميل الجمعية الملكية التاريخية. وقد منحته مؤخراً جمهورية الصين الشعبية لقب أستاذ فخري تقديراً له على البحوث المتميزة والمساهمة في مجال القيادة.

في عام 2009، تم تعيين جون أدير رئيساً لقسم دراسات القيادة في الأمم المتحدة، كلية شؤون الموظفين في تورين.

الموضوع الأساسي للكتاب هو دراسة جانب القيادة في شخصية محمد ﷺ، كما يعكس المؤلف صدى مشاعره نحو أصدقائه ورفاقه العرب الذين عاش معهم مدة خدمته في الفيلق العربي في أواسط القرن العشرين.

وكذلك يصور الجوانب الجمالية للحياة في البادية.

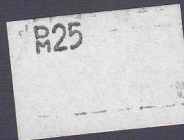
ومن خلال إضاءته على مهارات القيادة ومعالمها عند محمد ﷺ، حيث يشاركنا في الكثير من حكمته.

مع إطلالة على ملامح القيادة في الثقافة العربية البدوية؛ والأمثال العالمية القديمة، يقدم المؤلف نقاطاً رئيسية للقياديين والطموحين.

في الفكر الإسلامي يجب أن يجمع القادة بين السمو والتواضع والبصيرة، وأن يكرسوا حياتهم لخدمة الناس.

يبحث جون أدير هذا المفهوم عن القيادة والصفات الأساسية التي يجب أن يتحلى بها القائد؛ كالشجاعة والأمانة والحكمة العملية والتواضع.

القيادة تكتسب بالتعلم، فأنت لا تولد قائداً، ولكن بإمكانك أن تتعلم لتصبح قائداً، ومن الخطأ أن تقول إن الوقت قد فاتك لكي تتعلم القيادة، بل من الحكمة أن تبدأ في تعلم القيادة باكراً، فذلك هو الأفضل من أجلك؛ ومن أجل الذين تقودهم.



التراث